

رواية

الحق في الرحيل

فاتحة مرشيد

المركز الثقافي العربي

فاتحة مرشيد

الحق في الرحيل

رواية

المركز الثقافي العربي

فاتحة مرشيد

الحق في الرحيل

الكتاب

الحق في الرحيل

تأليف

فاتحة مرشيد

الطبعة

الأولى، 2013

عدد الصفحات: 192

القياس: 14 × 21

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-633-2

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 01 750507 ـ 01 352826

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

«من بين حقوق الإنسان التي تحرص حكمة القرن التاسع عشر على تعدادها مراراً وتكراراً حقان مهمان تمّ تناسيهما: الحق في التناقض والحق في الرحيل».

شارل بودلير

تحرّرْ من إرثك، من يقينك. . ونقِّ السبيلَ من حصى الآخرين.

ولو تهتَ بعد حين، لا تسل العائدين من الجحيم. .

سل الطيور المهاجرة.

الفصل الأول

من الصّعب جداً أن أكتب عنها. . ومن المستحيل ألا أفعل.

هي التي تمنّت أن تقرأ لي يوماً كتاباً موقعاً باسمي، ها أنا أقرّر بعد فوات الأوان أن أفعل، وكأن لا بدّ للكتابة من موت حتى تتحرر من سجنها.

كتبتُ عشرات الكتب ليوقعها مشاهير من نجوم ورجال سياسة ورجال أعمال. . كنت «الكاتب الشبح» أو «العبد» لذوي المال.

هل كنت أكتب لأجل المال؟ قطعاً لا.

أنا عاشق للكتابة ولكن، هناك شيء غامض كان يحول بيني وبين العلاقة المباشرة معها. كانت تلزمني دوماً ستارة أتوارى خلفها حتى أرى وأكتب ما يوجد وراء النافذة. مثل ذاك الرنّاء أستمتع بالنظر، كتابةً، إلى حيوات أخرى بكثير من الحياد متحاشياً التغلغل في أعماق حياتي الخاصة.

أو ربما كانت تَلزمني موتاً فقط، لأننا «مثل الجوزة لا بد من كسرها لتُكتشف»، على حد قول جبران خليل جبران.

أهو موتها ما حرر الكلمات بداخلي؟ أم هو حلولي بدهليز الموت؟

وهل هناك من فرق بينهما وقد فقدت نفسي بفقدها؟

لا أعلم. كل ما أعلمه، أو بالأصح ما أستشعره، هو أن كل عفاريت العالم الخارجي لا تعنيني، وحدها عفاريتي الداخلية تحركني الآن.. تجبرني على الكتابة وتعصر أحشائي كما نعصر حبات الزيتون لنستخلص زيتها..

أنا الذي بزيت حبي لها أشعلت الحرائق.

أهو تكفيرٌ عن ذنب اقترفته في حقها؟ أم اعترافٌ بذنب اقترفته في حقي؟

وكيف أكتب الآن والشخص الوحيد الذي أكتب من أجله لن يقرأني؟

لست خائفاً، ولا حزيناً. أتمنى فقط أن «يأتي الموت وتكون له عيناها» كما كتب سزار بافيس قبل أن ينتحر.

كان بإمكاني أنا أيضاً أن أنتحر على أن أنتظر موعد إعدامي.

لكنني مصرٌّ على أن أقول كلمتي قبل أن أرحل.

ترتفع أصواتُ الحقوقيين أمام باب السجن مطالبةً بإلغاء عقوبة الإعدام في المغرِب، ليكون أول بلد عربي يحترم الحق في الحياة.

كنت دائماً أعجب في الأفلام الأمريكية من ذاك الذي يتقدم من المحكوم بالإعدام بضع ساعات قبل النهاية ليسأله: «ماذا تريد أن تأكل؟ اطلب ما شئت فكل رغباتك ملبّاة».

أي رغبة بإمكانها أن تصد الموت عمّن صدر في حقه حكم كهذا؟

وكيف لفم تصطك عضلات فكه من الرعب أن يستلذ الطعام؟

يفقد الإنسان ذكاءه أمام المواقف الحرجة، لأنه لم يخلق لكي يحسم أموراً كهاته.

لا يوجد على وجه الأرض إنسان نقي بما يكفي ليصدر حكماً بالموت على آخر.

كلنا خطاؤون، ولهذا كلنا نتلعثم عندما نصدر أحكاماً، لأن أحكامنا لا يمكن أن تكون نزيهة على نحو مطلق، لأنها ببساطة تصدر عن نقيض للكمال: الإنسان.

تتعالى أصوات المناضلين خارجاً.

أنا معهم بالطبع، لكنني وإن كنت ضد الحكم بالإعدام بصفة عامة، إلا أنني اليوم مع إعدامي الخاص.

أود أن أكون آخر المعدومين.

قد تجدين في هذا تأكيداً إضافياً على نرجسيّتي أو كبريائي أو جنوني، وترتمين على عنقي كعادتك قائلة: «أحبك يا مجنون وأعلم أن حبك قاتلي».

كمصرٍّ على حتفه كنت تعلمين أنني قاتلك . .
وكنت أنا أموت في كل تطرف يجعلني استثنائياً في عينيك .
أتساءل أحياناً إن كنت مجنوناً قبل أن أحبك، أم أن حبك هو الذي رفعني إلى مستوى الخارق للعادة ليقطع صلتي بالواقع .
«الارتباط الحقيقي هو الذي يفصلك عمّا عداه» قلتِ .
لم أكن أتخيل بأنه سيأتي يوم ويفصلني عنك، بحجة أنها رغبتك وبأنني خلقت لتحقيق رغباتك .

قال لي المحامي : «بإمكانك أن تنكر وتنجو بنفسك» .
وهل ثمة من نجاة بعدك؟
وما معنى النجاة؟ وقد غيرتِ إدراكي لمعنى الموت والحياة .

صداع في رأسي، في عضلاتي وأحشائي . .
صداع كالصراخ داخل نفق موحش مدو، يتفرع صداه في أرجاء الفضاء . .
صراخ بحدة صمتك وأنت تلقين علي نظرة شكر وامتنان . .
وترحلين .

دخلتْ حياتي كإصرار من قدر.. كضفة بزغت من حلم..

ولم أكن شاباً بما يكفي لكي أحرق السفن خلفي..

كنت أقرب ما أكون إلى خط الوصول، وظننت أن السنين التي راكمتُ كفيلة بأن تحصّنني من انزلاق القلب.

لم يكن انزلاقاً، كان سقوطاً مدوياً استقبلتهُ كولادةٍ جديدةٍ.. كهديةٍ أخيرةٍ، كرضى إلاهي.

كان ذلك في إحدى الليالي الكئيبة من ليالي لندن، حيث الضباب هو الوفي الوحيد في زمن الخيانات.. كان العالم من حولي يحتفل بقدوم سنة جديدة وكنت أنا أنعي سنة مضت كيلا تعود.

كنا ضيوفاً على مدير الجريدة العربية التي أعمل بها، الأستاذ خزعل، وهو عراقي الأصل، أراد أن يكون الفرح عربياً، فاستدعى أصدقاءه.وصديقاته ممثلي وممثلات الأقطار العربية.

قدّمنا الأستاذ خزعل لبعضنا وهي تهب علينا في فستان أحمر كنسمة دافئة:

- إسلان أو بالأصح الشّاف إسلان، طباخة عالمية بثلاثة نجوم.

- الأستاذ فؤاد الزموري. . كاتب سرّي وصحافي علني. . ابن بلدك.

قلتُ بتلقائية دخيلة علي، بمغربية متلعثمة، كلمة لها عندنا دلالات شتى:

- تبارك الله عليك.

اكتفت بابتسامة مضيئة ومرت لمصافحة امرأة بجواري.

لم أستطع كبح نفسي من تتبع تنقلاتها طوال السهرة وقد شدتني إليها تفاصيل رهيفة: هشاشتها وسط جموع الراقصين، تعاسة تنبعث من حركاتها البطيئة، وجسدها الذي يضحك ويبكي وهو يتلوى على إيقاع موسيقى شرقية.

ثم، وقد يبدو هذا غريباً، تهيأ لي للحظة أنني قد لمحت صورة المرأة التي ستكونها يوم تصبح معشوقتي، ولم أكن أدري إن كانت مرتبطة أم لا.

قلت في نفسي:

«رويدك يا فؤاد، لم يعد عصفور فؤادك يستحمل الطيران. لست شاباً بما يكفي لتربطك ضفيرتها السوداء إلى غد يركض بك نحو حتفك. .».

لـم تكـن فتـاة مثـل اللـواتي أُثَّـن الـسـهرة، كـانـت امرأة فـي الأربعين. . لكنها شابة بما يكفي لتأجيج بقايا رعشات كالوهم تكلف الكثير.

أهو حنيني إلى المغرب الذي لم أزرهُ منذ أكثر من ثلاثين سنة، ما ألهب رغبتي في الحديث إليها بلهجة ترقص لها الذاكرة؟

أم أنها تلك الكيمياء الغامضة التي تضيف للقلب ذكاء لا يسعنا معه إلا الامتثال؟ أم تراه الاحتفاء بنهاية السنة، ما يؤجج رغبتنا في الإمساك بخيط أمل مهما كان ضعيفاً، علّ السنة المقبلة تكون أحسن من سابقاتها؟

سألتها دون مقدمات:

- إسلان، أهو اسم مغربي حقاً؟

قالت وقد أربكها سؤالي:

- أجل، هو اسم أمازيغي.

- وماذا يعني؟

- معناه: العروس.

- وهل أنت عروس؟

استدركتُ:

- أعني هل أنت متزوجة؟

- لا، اكتفيت باسمي واستغنيت عن الزواج.

لا أدري لما أحببت هذا الجواب الذي شجعني على الاسترسال:

- ومن أي منطقة من المغرب أنت؟

- من تافراوت.

- يا الله، أنت من تافراوت، كم أحب هذه المدينة.. أتعلمين لماذا أحبها؟

- لماذا؟

- لأنها أنجبت أرق شاعر وأحسن كاتب مغربي فرنكوفوني هو محمد خير الدين.. إنه شاعري المفضل.

قالت مازحة.

- لم أكن على علم بأن تافراوت قد أنجبت غير العمال المهاجرين.

لم أعقّب، كنت أردد في خاطري: «إنها سليلة محمد خير الدين إذاً.. سليلة خير الدين»، قبل أن أستحضر بالفرنسية بيتاً شعرياً له:

«Le poète c'est toi
Toi qui te nourris de la nostalgie du futur»

أردفتْ مترجمة أياه بالعربية:

«الشاعر هو أنت

أنت الذي تتغذى من حنين المستقبل».

قبل أن تضيف:
- رائع جداً أن يتغذى الإنسان من حنين المستقبل ونحن على مشارفه.

ثم بادرت بسؤالي:
- وأنت هل أنت عريس.. أعني هل أنت متزوج؟
ضحكنا معاً من خفة دمها قبل أن أجيب:
- الزواج الوحيد الذي أقبلت عليه لم يكن حقيقياً.
- زواج أبيض، تعني؟
- لا، الأمر أعقد من هذا.. كان ذلك في المغرب.. إنها قصة طويلة قد أحكيها لك يوماً.. دعينا في قصتك أنت.. لم أكن أتصور امرأة مغربية، ومن تافراوت تحديداً، شافاً طباخاً بثلاث نجوم.. كنت أعتقد المهنة حكراً على الرجال.
- هذه قصة طويلة كذلك قد أحكيها لك يوماً..
وأضافت:
- متى زرت المغرب آخر مرة؟
- منذ أزيد من ثلاثين سنة.. أتعلمين؟ أصبحت أحلم بالأطباق المغربية.
ضحكت قائلة:
- هذا حلم يسهل تحقيقه.
- كيف؟
- بإمكاني دعوتك لأكل أطباق مغربية في بيتي.
- سأكون ممنوناً لك.

ونحن نتبادل أرقام هواتفنا، ارتفع صوت الأستاذ خزعل قائلاً:

- خمسة دقائق ونستقبل السنة الجديدة.

وما هي إلا لحظات حتى بدأنا العد التنازلي:

10، 9 ، 8، 7، 6، 5، 4، 3، 2، 1، 0

عانق كل واحد من بجواره كما تقتضي العادة.

وعانقتها . . أطبقت قبلة على خذها، مردداً:

- كل عام وأنت بألف خير.

- وأنت كذلك.

انتبهت أن وجنتاها قد تورّدتا. أمن فعل قبلتي أم هو حياء تافراوت؟

شجعتني هذه القُبلة على دعوتها إلى الرقص.

لم أكن أتخيل وأنا قادم إلى بيت الأستاذ خزعل، متمنياً لو أعفاني من هذه المجاملة، بأنني سأكون آخر من يغادر بصحبة إسلان.

رقصنا طويلاً وهي تتمايل بين ذراعي.

قلت في نفسي:

«موجعة نظرتها، فيها بعض إعجاب، ولست شاباً بما يكفي لأصدق».

وتهيأ لي سماعها تقول:

«لستَ عجوزاً بما يكفي لتتخلى عن عطر وردة يفوح كوعد جميل من السنة الجديدة».

من قال بأن التجارب تنفع في هذه المواقف؟

وهكذا، أنا الذي تفاديت سلطة النساء من قبلها، أصبحت بين يديها حيواناً أليفاً يحرس البيت في غيابها ويستقبلها بنباح الفرح عند عودتها.

وصلتُ عمارتها بشارع كوينز واي المحاذي لحديقة هايد بارك، منتصف النهار، محملاً بورد أبيض ورواية «أغادير» لمحمد خير الدين . .

فلم أجد أحسن من خير الدين وسيطاً أقتحم به خلوتها.

دلتني على بابها، في الطابق الرابع، رائحة زكية لأطباق مغربية.

طرقت الباب طرقات خفيفة. استقبلتني بقفطان مغربي أزرق وشربيل باللون نفسه، وقد أسدلت ظفيرتها الطويلة السوداء على كتفها الأيسر.

أطبقتُ قبلة على خدها وطبول القلب تدق. . تدق. . تدق. . نكاية في ارتفاع ضغط الدم ووصايا الأطباء.

- مرحباً، مرحباً بالأستاذ فؤاد، تفضل.

تلعثمتُ وأنا أمد لها الورد والكتاب:

- شكراً.

- أنا التي أشكركَ. . لم يكن من داع لإتعاب نفسك.

- أردت أن أُعرّفكِ إلى خير الدين. . إنها روايته الشهيرة «أغادير».

قالت هي بتلقائية:

- يا لحسن الصدف! إنني أحب أغادير وأمنيتي أن أفتح فيها يوماً مطعماً وأستقر هناك.

قلت مبتسماً:

- يسعدني سماع هذا.

كان بيتها مريحاً في بساطته، أحسست فيه بالسكينة تغمرني وكأنني ركضت عمراً لآتيه فأستريح.

جلستُ بصدر الصالة على أريكة عريضة أمام طاولة قصيرة مزينة بعلبة من الصناعة التقليدية المغربية. . سألتها مشيراً إلى العلبة:

- لا بد أن فيها مجوهرات أمازيغية؟

ردت:

- لا، هي فعلاً علبة للمجوهرات لكن، على عكس النساء، مجوهراتي من نوع آخر . . لأعرفك إياها إذاً.

فتحت العلبة وإذا بقوارير صغيرة مصففة بعناية. جلبتْ واحدة فتحتها وقالت:

- اشتم هذه الرائحة.

كانت رائحة لتوابل أعرفها ولا أعرفها. قلت:

- هي توابل. . دعيني أفكر. . تذكرني بخليط التوابل المغربية الذي نسميه «رَاسْ الحَانُوتْ».

- أحسنت. . هناك توابل أخرى لا إِخَالُك تعرفها.

ثم أضافت وكأنها أمّ تتحدث بفخر عن ذريتها:

- إنها بالنسبة إلي علبة العجائب والغرائب والمجوهرات والذكريات. . إنها كنزي.

هذه القوارير تحتوي على توابل من مختلف أنحاء العالم. . كل قارورة تحكي حكاية. . إنها عصارات حكايات الكون مجتمعة في علبة للتوابل. . فكما يحتفظ بعضنا بألبوم الصور، أحتفظ أنا بألبوم الروائح. . روائح التوابل.

قلت مندهشاً:

- لأول مرة أصادف أحداً ينصف التوابل بهذا الشكل.

- شكراً، لا يمكن لأحد جهل قيمتها. . فخلال تاريخها المثير كانت التوابل أكثر قيمة من الذهب ومن الأحجار الكريمة. وكلمة «سبايس» بالإنجليزية مشتقة من اللاتينية، وتعني الشيء القيم والمميز.

أمام اهتمامي بكل ما تقول، استرسلتْ:

- أتعلم؟ لقد كتب الباحثون في التوابل على أنها تلخص تاريخ العالم وأساطيره، وتاريخ التجارة والطرق والقوافل والبحار والصراع بين الدول، نظراً إلى تأثيرها على السياسة والاقتصاد والثقافة وأساليب الحياة في العالم.

قلت معترفاً بجهلي:

- كل ما أعلمه هي أنها تضيف نكهة أو رائحة أو حدة للطعم مما ينتج الشهية ويقوي المذاق.

- هي كذلك لأنها تؤثر على أجهزة الهضم والبصر والتذوق، مما يؤدي إلى تشغيل الأوعية الدموية المتصلة بالغدد اللعابية عن طريق الجهاز العصبي، كما تحثُّ الغدد المعدية والمعوية على إفراز مقادير أكبر من العصارات الهاضمة.

استدركتُ:

- آه! أعلم كذلك أنها تستخدم في بعض الأدوية.

- هي كذلك وأكثر.. فالكتابات القديمة في الصين وسومر وآشور ومصر واليونان وروما تشير إلى استخدام التوابل في تصنيع الدواء والزيوت والمراهم المقدسة والمركبات المثيرة للشهوة الجنسية، كما استخدمها الكهنة في العبادات والتعاويذ والطقوس السحرية، إضافة إلى علاج الأمراض.

قلت بإعجاب:

- أنت موسوعة.. حقيقة أبهرتِني.

قالت ضاحكة وهي تغلق العلبة:

- لا، ليس إلى هذا الحد، إنني فقط أسرد عليك الدرس الذي اجتهدت كثيراً في إنجازه لطلبتي.

فوق منضدة بجوار الأريكة صفّفت صوراً لها بقبعة الشاف وهي تستلم جوائز، وأخرى مع رجل مسن تشي ملامحه بأنه من آسيا.

سألت بفضول:

- من هذا الرجل؟

- إنه أستاذي وصديقي وأبي الروحي الشاف الياباني هيروكي.. قد أحكي لك عنه يوماً.

ثم أضافت:

- دعني أولاً أقوم بواجب الضيافة.. لا بد أنك جائع.. لو تسمح لي.. لن أسقيك نبيذاً اليوم، وإن كنت بحكم عملي أفهم في النبيذ الجيد ولي منه ما يروق لك.. لكنني أردت لجلستنا الأولى أن تكون مغربية محضة.. لهذا سوف أسقيك شاياً بالنعناع.

كان سفراً رائعاً في الجانب الجميل والمضيء للمغرب، الذي عملت إسلان على أن يكون كاملاً: فزيها مغربي وأطباقها مغربية.. أما الموسيقى فقد جعلت الحنين لدفء بلادي يرجني من الأعماق.

كيف استطعتُ الابتعاد عن هويتي إلى هذا الحد؟

كيف سرقتني السنون لأصبح بارداً كجوٍّ لندن، كئيباً كسمائها؟

أكلت بشهية محارب من «البَسْطيلَة بالدّجاج» ومن «طاجين البَرْقُوقْ باللُّوز» ومن «الزَّعْلُوكْ» وتشكيلة السّلطات لأنتهي إلى «البرتقال بالقرفة والسكر».

وما سبق لي أن سكرت بشاي قبل ذلك اليوم.

«إن أنت لم تذهب إلى المغرب فالمغرب يأتي إليك»، قالت.

ليس المغرب فقط.. إنها الجنة أتت إلي.

سألتْ وهي تصب الشاي المنعنع في كأسي:

- قدمك الأستاذ خزعل على أنك كاتب سرّي وصحافي علني.. لكن ما معنى أن تكون كاتباً سرياً؟

أسعدني أنها لا تزال تذكر. أجبت:

- أنا «كاتب شبح» من الذين يشتغلون في الظل.

- لم يسبق لي أن سمعت بهذه التسمية.. ما معنى «كاتب شبح»؟

شرحتُ في إسهاب:

- لا شك في أنك تعلمين بأن الكثير من المشاهير، رياضيين أو رجال أعمال أو رجال سياسة أو نجوماً أو رؤساء دول.. قد أصدروا كتباً تحكي سيرهم الذاتية.

طبعاً، هم لا يمتلكون موهبة الكتابة ولا الوقت الذي يضيعونه في التأليف والتنقيح، لكنهم بالمقابل يملكون المال الذي يجعلهم يحققون حلم إصدار كتاب يحمل اسمهم. وهنا

تكمن مهمة «الكاتب الشبح»: فهو كاتب أو صحافي يملك حرفة الكتابة دون اسم معروف ودون إمكانيات مادية، يعرض خدماته على من لهم حلم إصدار كتاب، إلا أنه يختلف عن باقي الكتب في كونه يحمل اسم الشخصية وليس اسم الكاتب.

سألتْ بنبرة اندهاش، وهي تعرض علي صحن الحلويات المغربية:

- شيء غريب حقاً. . كيف يمكن لكاتب أن يتولى كتابة عمل مضن يصب فيه كل موهبته وجهده ويسمح لآخر بأن يمنحه اسمه؟ هل يمكن أن نتخيل فناناً تشكيلياً يرسم لوحة ليوقعها غيره؟

رددت:

- إنها مجرد حرفة بالنسبة إلي. أنا مثل عامل بناء، يبني بيتاً ليسكنه غيره، أو مثل مهندس معماري يرسم بيتاً، انطلاقاً من رغبات صاحبه.

- ربما، لكن كل هؤلاء: عامل البناء والمهندس المعماري ليسوا أشباحاً تعمل في خفاء، هم يوقعون أعمالهم ويفتخرون بها. .

لا أعتقد أن مبدعاً حقيقياً يقبل بهذا.

قلت موضحاً، وقد بدأ النقاش يسلك منحى جاداً:

- أنا لا أعتبر نفسي مبدعاً. . لأن الكاتب الحقيقي يبدع من كل شيء ومن لا شيء، معتمداً على خياله وحافراً في ذاته. أما

أنا فأكتب ما ترويه الشخصية بأكبر قدر من الحياد. . علماً بأن هناك كتّاباً كباراً يستعينون بـ«كتاب أشباح» لكتابة رواياتهم. . لقد كنت الكاتب «العبد» - كما يُنعتون بفرنسا - وأنا ما زلت طالباً في باريس، لكاتب مغربي مشهور يكتب بالفرنسية.

أردفتْ معربة عن عدم اقتناع:

- لا أستطيع أن أستوعب كيف لا يزعجك ألا توقع كتاباً أنجزته؟ ماذا تستفيد إذاً؟

وجدتني للمرة الأولى، أمام أسئلة دقيقة حول موضوع كثيراً ما تحاشيت التفكير فيه. أجبت:

- أستفيد مالاً. . حقوقي ككاتب.

- وما هي حقوق «الكاتب الشبح»؟

هممت أن أقول لها بأن اهتمامي بحيوات أخرى كان انعكاساً للضجر الذي كانت تعرفه حياتي حينذاك، وبأن علاقتي بالكتابة أعقد بكثير مما يمكنها أن تتخيل، وبأن المال لم يكن قط محفزاً بالنسبة إلي. .

لكنني اقتصرت على الإجابة عن سؤالها:

- في فرنسا مثلاً يمنح الناشر عشرة إلى خمسة عشر في المائة من ثمن المبيعات إلى المؤلف أعني موقّع الكتاب، ثلاثين في المائة منها هي من حق الكاتب الشبح. لكن هناك من يطلب

من الشخصية مبلغاً متفقاً عليه زيادة على ما يؤديه الناشر، وهناك من يفضل مبلغاً من المال دون نسبة من حقوق التأليف. لا توجد قاعدة قارة.

في أمريكا مثلاً، قد يرتفع المبلغ إلى مائتي ألف دولار أو أكثر تسددها الشخصية للكاتب الشبح. إنها مهنة مربحة لكن في الدول العربية تكاد تكون غير معروفة.

استفسرتْ، وهي تملأ كأساً أفرغتُها:

- أتساءل إن كان من الممكن الكتابة بحياد؟ .. خبرني، كيف تتم الكتابة عند الكاتب الشبح؟

أجبتُ، وأنا أتملّى أصابعها الرقيقة وهي تلمس إبريق الشاي.. ترفعه إلى أعلى بكل رفق.. تصبُّ خيوطاً من ذهب في قاع الكأس.. تزينها برغوة من فضة:

- من شروط هذا النوع من الكتب معاشرة الشخصية لمعرفة نمط حياتها وخبايا نفسها، حتى يتسنى التعبير بلسانها واستخدام ألفاظها وتعابيرها الخاصة.. عموماً تكون لي جلسات يومية، تقريباً، تحكي لي خلالها الشخصية عن حياتها وأنا أسجل أقوالها على آلة للتسجيل، لأدونها بعد ذلك بطريقة أدبية شيقة، ثم أقرأ عليها ما كتبته في بداية الجلسة الموالية، وهكذا دواليك لبضعة أشهر.

بدت عليها الحيرة. كان واضحاً أنها تجد صعوبة في الاقتناع، سألت:

- لكن.. كيف لك أن تعلم بأن ما تقوله الشخصية هي تفاصيل حقيقية من حياتها؟

أجبتُ، وقد سحرتني برقة حضورها وعمق أسئلتها:

- لا تهمّني تفاصيل الأحداث بقدر ما تهمّني انفعالات الشخصية خلالها ووقعها عليها وتأثرها بها.. تهمني الشخصية وسط الأحداث بأحلامها، بمخيلتها، بكل إفرازات الحياة بداخلها.. لأن في الكتابة كما في الحياة لا تهم عظمة الأحداث بقدر ما يهم تفاعلنا معها..

ثم لست أنا من يوقع الكتاب لهذا فلا مسؤولية لدي.

قالت، وهي تصلح من جلستها، معبرة عن عدم اتفاق:

- ربما، لكنك تكتبه، وشئت أم أبيت فأنت من يقدم صورة الشخصية بأسلوبك الخاص وإحساسك الخاص. ألا تخاف أن تستغلك بعض الشخصيات في تبييض سيرتها كما تُبيّض الأموال، فتعطي فكرة غير صحيحة عنها للقارئ؟

غير خاف عليك بأن أصحاب المال يشترون كل شيء حتى تاريخاً مزوراً، أليس كذلك؟

رددت بصراحة فرضها ذكاء السؤال:

- دعيني أسر لك بأمر: منذ أربع سنوات خلت، اكتشفت بعد نشر سيرة رجل أعمال وسياسة معروف، قدم نفسه على أنه

عصامي بنى ثروة خرافية من عرق جبينه، أنه كان يتاجر في المخدرات. . وقد كانت آخر سيرة أكتبها. . اكتفيت بعدها بالصحافة.

- معك حق في أن تتخلى عن الكتابة من هذا النوع لكن يجب أن لا تتخلى عن الكتابة بصفة عامة. اكتب لنفسك ووقع أعمالك. . لي اليقين بأنك بفضل هذه الخبرة التي اكتسبتها كـ«كاتب شبح» سوف تكون روائياً ناجحاً.

قلت وقد أعجبني اهتمامها المحفز:

- شكراً على ثقتك، ربما يأتي يوم. . ربما.

أضافت برقة مميتة:

- ما رأيك في أن أحكي لك قصتي، علّني أكون إحدى بطلات رواياتك المقبلة. . أيها المبدع السري.

أعترف بأنه لم يكن لي مشروع كتابة شيء باسمي، لكنني لأمرٍ بدا لي بداهياً ساعتئذٍ، كنت مستعداً لأعدها بأي شيء يكون ذريعة لقاءات متكررة بها. قلت:

- بشرط أن تكون حقوق التأليف أطباقاً مغربية.

- موافقة.

وهكذا، اتفقنا على أن نلتقي الأحد المقبل والذي يليه وكل الآحاد الضرورية لسرد.قصتها. . قبل أن تمحو قصتنا الجديدة كل سابقاتها.

كان أطول أسبوع عشته في لندن، وأنا أنتظر الأحد الموالي، قبل أن أحظى بترف الاسترخاء فوق أريكتها.

سألتْ شبه مندهشة:

- ألن تسجل ما سوف أحكي كما كنت تفعل مع الشخصيات التي كتبت عنها؟

- لا. لن أكون «الكاتب الشبح» الذي كنته.. أريد أن أنصت إليك، وأدع قصتك تنساب بداخلي لتمتزج بقصص تسكنني قبل أن أسكبها على ورق وقد تخمرت وتعتق ماؤها.. أليس هذا ما تريدينه؟ أن تكوني شخصية في عمل إبداعي حقيقي؟

- بلى.

- طيب، احكِ يا شهرزاد.

- بشرط ألا تقاطعني.

- كلي آذان صاغية.. فقد علمتني مهنة «الكاتب الشبح» فنّ الإنصات.

بدأت الحديث عن والدها كما لو كانت بصدد كتابة قصتها:

«سبعة عشر ربيعاً هي كل ما يملك، إن استثنينا قسطاً وفيراً من الخجل ورثَه عن والدته، وأحلاماً لم تتعلم التحليق، ومع ذلك قرّر أن يهاجر إلى فرنسا.

لم يكن له طموح طالب علم ولا روح مغامر، أراد فقط أن تفخر به أمه كما تفخر نساء تافراوت بأبناء يبعثون نقوداً كل شهر هي ثمن غربتهم.

سمع عن حملة استيراد فرنسا للعمال المغاربة التي كان يشرف عليها مسيو فيليكس مورا في الخمسينيات بتزنيت فشد الرحال إليها وكله أمل.

كان الشبان يصطفون عراة الصدور أمام مورا الذي يكشف عن عضلاتهم وأسنانهم وعمودهم الفقري، قبل أن يضع توقيعاً على عريهم، موقعاً بذلك مصيرهم: من وُقّع بالأخضر فهو محظوظ ومن وُقّع بالأحمر فهو مرفوض. كان والدي السي احماد يتمتع حينها ببنية قوية جعلته من المحظوظين.

بدأ كعامل في مصنع قطع غيار سيارات رونو، لكنه سرعان ما لاحظ بأن بعض أفراد الجالية المغربية من أصل أمازيغي تتمتع بوضعية مريحة لا تتيحها سوى التجارة. حينها، أصبح هدفه شراء دكان بقالة وبدأ يدّخر المال لهذا الغرض.

لكن سرعان ما أدرك بأن التوفير وحده لن يمكنه من استقلالية من هذا النوع».

ما زالت إسلان تحكي، وأنا كتلميذ نجيب معجب بأستاذته، أشرب كل كلمة تنساب من شفتيها:

«اتصل حينذاك، بتاجر معروف بنزاهته يدعى مسيو الداموح، وهو أمازيغي من آيت ملول. حدثه عن حلمه، فأخبره هذا الأخير عن نظام للقروض، تعتمده الجالية المغربية من أصل أمازيغي، مبني على التعاون والتآزر القبلي، وأنه هو نفسه قد استفاد منه وأفاد منه آخرين.

هذا النظام كالآتي:

كلما أراد أحد أن يشتري دكاناً أقرضه كلٌّ من هو أمازيغي على حسب قدرته. فبإمكانك أن تستلف مليون فرنك، مثلاً، من عشرين شخصاً في مدة وجيزة، تسددها بالتتالي كلٌّ على حسب حاجته للمبلغ وبدون فائدة، تفادياً للرّبا. وبهذه الطريقة، تجد نفسك دون أن تتجه إلى بنك ودون تسديد فوائد، مالكاً لمحل تجاري.. هذا ما يفسر كون الأغلبية الساحقة من دكاكين البقالة في فرنسا يملكها مغاربة من أصل أمازيغي.

لكن هذا النظام يعتمد أساساً على الثقة، أو أن يضمنك تاجر أمازيغي معروف.

وقد ضمنه مسيو الداموح الذي اتصل شخصياً بأصدقائه.

وهكذا أصبح والدي صاحب محل بقالة في سان أووان في ضواحي باريس.

بعد أن سدد قروضه، طلب من جدتي أن ترشح له عروساً عند عودته خلال العطلة الصيفية وعمره آنذاك يناهز الأربعين.

كانت جدتي الحاجة ممّاس تشتغل طباخة بالمناسبات والأعراس منذ ترملها المبكر، واستمرت، رغم تكفل وحيدها المهاجر بكل مصاريفها، حباً في الطبخ.

وأعتقد جازمة بأنني قد ورثت عنها ولعي بفن الطبخ».

صمتت إسلان قليلاً قبل أن تقترح:

- ما رأيك أن أتمم قصتي ونحن نتنزه بحديقة هايد بارك؟

ارتدى كل منا معطفه وخرجنا نحث الخطى نحو ماضيها.

أحسست بطاقة الحياة تخترق جسدي. . أصبحت مضيئاً. .

وأنا أشق، بصحبتها، السبل المزهرة للحديقة، بينما تدثرني نبرات صوتها المخملي:

«أُعجب والدي بالفتاة التي رشحتها جدتي. . عروس على قدر كبير من الجمال في ربيعها السادس عشر - ما يعتبر شيئاً عادياً بتافراوت، حيث تتزوج الفتيات في سن مبكرة- أقام لها عرساً محترماً وعقد قرانه عليها ورحل بعد أسبوعين وقد وعدها بأن يجهز الأوراق الضرورية ويصطحبها معه في المرة المقبلة.

كانت يامنة، وهذا اسمها، سعيدة بهذا السعد وقد حققت حلماً تتقاسمه معظم فتيات تافراوت: الزواج بمهاجر ميسور يأخذها معه إلى الضفة الأخرى، حيث تصبح من اللواتي تَعُدن مرة في السنة بسيارات فخمة محملات بالهدايا يوزعنها على كل أفراد العائلة والجيران.

لم يكن فارق السن يعتبر حاجزاً، فالرجل في عرفنا لا يعيبه إلا جيبه. وفي تافراوت، باستثناء أقلية خلقت وبفمها ملعقة من

ذهب، المال يجلب من بلدان المهجر وليس من الدراسة أو الوظيفة.

ستستغني يامنة عن تافراوت بكل سعادة، كيف لا؟ والزحام الذي ترعرعت بأحضانه لم يخلق دفئاً، والمعاناة المشتركة لم تخلق تواطؤاً. فقد أدركت، كالعديد من بنات جيلها، أن الخلاص لا يتحقق إلا بصفة فردية.

لن يكون فراق مدينتها بالأمر العسير، فقد سقتها اليتم وهي في الرابعة من عمرها، لتبدأ مبكراً في التعثر بين زوجات أبيها الثلاث وأبنائهن من جهة، وبقية العالم الخارجي. عالم سرعان ما أحسّت داخله بالاختناق.

ستتخفف قريباً من ثقل انتماء لم تنل منه سوى القسوة. ففي غياب والدتها، كانت كل واحدة من زوجات والدها، تعطي نفسها صلاحية ملء هذا الفراغ ومحاولة تربيتها بالطريقة الوحيدة التي كان يمارسها الكبار على الصغار: العنف والضرب. وطبعاً، كل الأوقات مناسبة. كما أن ضرب إحداهن لها لا يعفي الأخريات من أن يبرهن على أنهن أكثر صرامة وغيرة على سمعة العائلة.

إن كانت التربية لدينا يلخصها المثل الشعبي «قَدّ البُوسَه قَدّ القَرْصَه» بمعنى: «في مقابل صفعة امنح قُبلة»، فما عرف جلدها الرّهيف غير «القَرْصْ» أمّا «البُوس» فلا يدخل ضمن برنامج الأمهات البديلات.

إن كان ثمة إحساس يلخص طفولتها فهو الإحساس بـ «الحُكرة» وهو مصطلح له بالعامية المغربية - كما تعلم- معنى أقوى من الاحتقار أو التحقير. لهذا السبب، كانت وهي توقع قرانها بوالدي، كأنما توقع نهاية الذل والحكرة وبداية حياة جديدة في عالم جديد يدعى فرنسا.

عاد والدي بعد ستة أشهر ليصطحبها معه وكانت حاملاً بأخي الأكبر قاسم.

إلا أن جدتي كان لها رأي آخر..

بكت وهي تقول له: «ها سخطي وها رضاي، يكفي أنني حرمت منك.. ولدي الوحيد.. لن تحرمني من أطفالك.. أنا كبرت ولن أستحمل العيش لوحدي. لقد اعتدت على يامنة، إنها البنت التي لم ألدها من بطني، وأريد أن أربي أبناءها. دعها الآن معي وبعد موتي افعل ما تشاء».

كيف يتحمل سخط والدته ورضى الله من رضى الوالدين؟

بكت يامنة طويلاً وهي تودع زوجها وحُلماً بات أبعد من المسافة التي تفصل المغرب عن فرنسا.

أنجبت أخي قاسم الذي تكفل بملء فراغ خلفه غياب والدي. وحبلت وهو لم يقفل عامه الأول لتلد ولداً سمته موسى.

كانت سعادة جدتي لا توصف وقد ملأَ بيتَها صخبُ الطفولة، أما والدي فقد بدأ يأتي المغرب مرتين إلى ثلاث في السنة.

وذات يوم مشؤوم، استدعيت جدتي لتطبخ في أحد الأعراس.

وبينما كانت أمي تنظف البلاط، وموسى الذي تعلم المشي حديثاً، يخطو في غرفة الجلوس، خرج قاسم راكضاً من باب المنزل الذي تركته أمي مفتوحاً ليجف البلاط. تبعته بعد أن غطت جسدها بملاية. أمسكت به وسحبته من يده نحو البيت.

أمام الباب، استوقفتها الجارة تسألها عن جدتي لوقت وجيز، دخلت بعده المنزل، أقفلت الباب بإحكام وهي تنادي على موسى لكنه لم يجب. بحثت عنه في كل أركان البيت والقلق يعصرها، فإذا بها تلمح قدميه الصغيرتين يخرجان من السطل الذي كان مملوءاً بماء تنظيف البلاط.

طلقت صرخة مدوية جعلت الجيران يهبّون عليها. أخرجت موسى من السطل الذي سقط فيه لتجده جثة هامدة.

انهمكت إحدى الجارات في محاولة لإنعاشه، نفخت في فيه وضغطت على صدره، لكنه كان قد غادر الحياة».

تسربت إلي لمسة حزن انبعثت من صوت إسلان وهي تسترسل:

«أن تفقد ابناً شيء غير محتمل، لكن أن تفقده بهذه الطريقة البشعة فهذا فوق طاقة كل إنسان.

هنا بدأت مأساة والدتي التي كانت من سوء حظي حاملاً بي.

دخلت في حالة اكتئاب شديد لا تكف عن لوم نفسها وعن البكاء.

حزن والدي على موسى حزناً شديداً، وحزن على حزنها لكنه لم يستطع أن يمضي معها أكثر من أسبوع يعود بعده إلى شغله.

على هذا الجو السوداوي فتحت عيني..

رفضت أمي أن ترضعني من ثديها أو تضمني إلى صدرها، فقد كان إحساسها بالذنب يفوق قدرتها على الفرح بقدومي.. وكأنها لا تستحقني.

حتى والدي لم يكن في استقبالي يوم شرّفتُ، بل لم يتعرف إليّ قبل إكمالي ثمانية أشهر من عمري.

ثمة أوقات يستحسن ألا يولد فيها الإنسان.

لولا وجود جدتي التي عنيت بي لما عشت.. يبدو أنني لم أحظ من يامنة يوماً بقبلة أو عناق. وأنني كنت أنادي جدتي بماما، أمّا هي فلم تكن بالنسبة إلي أكثر من يامنة أم قاسم.

وكأن قدر مأساة أن تجر أخرى، أصيبت جدتي وأنا في عامي الخامس بمرض عضال أودى بحياتها.

على عكس ما كان يتوقع الجميع، لم يعمق رحيل جدتي من اكتئاب يامنة، بل على العكس من ذلك، لقد صالحها معي وبدأت تتقرب مني شيئاً فشيئاً.

وكأن حزناً أتى ليمحو آخر».

صمتت إسلان، ونحن على ضفاف بحيرة الهايد بارك، نظرتُ إلى عينيها الداكنتين وكانتا مغرورقتين..

ضممتها إلى صدري بكل حنان وأطبقت قبلة لا متناهية على شفتيها.. تحت أنظار البط المتمايل فوق الماء.. قُبلة امتصت بحرارتها كل ضباب لندن.

وعدنا في صمت مربك.. إلى بيتها.

أذكر فقط أنني همست في أذنها على الوسادة، بصوت مرتعش:

«دعيني من باب الاحتياط فحسب، أودع أوراقي، قبل أن أستحيل قربان رغبة يهوي بين نهديك».

لم ننتظر الأحد الموالي حتى نلتقي. .

أصبحت كل الأيام آحاداً.

ما إن تنتهي من التدريس في مدرسة الفندقة حتى نلتقي ببيتها لنروي عطشنا لبعضنا.

تعدُّ هي أطباقاً مغربية، وأجهز أنا طاولة الطعام أو أهتم بالشراب وبالموسيقى.

ثم، وبعد أن ننصت إلى حديث أجسادنا وهي تبوح لبعضها في صمت وجهر بأحاسيسها الدفينة. . تضع رأسها على كتفي ونحن مازلنا ممددين على السرير، وتلقي العنان لذاكرة تركض كمهرة فُكّ رباطها:

«بعد وفاة جدتي لم يعد هناك ما يعيق جمع شملنا بوالدي.

أخيراً تحقق حلم يامنة في الهجرة إلى فرنسا التي اقتحمتها بعزيمة أن تبدأ حياة جديدة من الصفر، قبل أن تلقنها الأيام بأننا

لا نبدأ أبداً من الصفر.. نحن نبدأ دائماً محملين بحقائب نجرّها منذ الطفولة..

وكحلم لم يكتمل عجزت باريس المشتهاة عن جبر شرخ روحها.

كل ما أذكره من حياتها في باريس هو أنها كانت تحب النظافة. كان بيتنا ناصع البياض، إذ لم تكن تقبل بلون آخر بإمكانه أن يحجب عنها الغبار أو الوسخ.

«كل الألوان كاذبة» كانت تقول، «إلا الأبيض إنه شفاف وصادق ولا يخفي العيوب».

لم تكن تهتم باكتشاف باريس أو بالخروج في فسحة أو نزهة. كان البيت كلّ دنياها والعناية به هدفها الأسمى في الحياة.

دخلنا المدرسة، قاسم وأنا، وكانت عالماً سحرياً بالنسبة إلي. على عكس أخي الذي كان يفضل المكوث في البيت مع والدته، كنت أفتقد جدتي وأعلم أن يامنة لن تعوضها أبداً، خاصة وأنها لم تكن تستطيع إخفاء حبها لقاسم وتفضيله علي بحجة أنه ولد وبأنه البكر.

وجهتُ إذاً كل طاقتي نحو المدرسة التي وجدت فيها فضاء مفعماً بالحياة وبالعلاقات. تفوقت دراسياً على قاسم وكان هذا يثأر لي من غيرة كانت تنهش قلبي الصغير. كما أدركت، مبكراً، بأن المعرفة سوف تضمن لي مستقبلاً مضيئاً وحياة أحسن وأغنى من حياة يامنة.

وعندما بلغت سن الرشد، تفتحت أمامي آفاق أخرى عمّقت الهوة التي بيننا، فبدأت أنتقدها وأنتقد طريقة عيشها وقلة فضولها المعرفي وأُبدي آرائي بصراحة. لاحظت أنها تغسل كل الخضر والفواكه بمسحوق الغسيل ومحلول «جافيل»، وكذا علب اليوغورت قبل أن تضعها في الثلاجة. قلت لها بأن هذا مبالغ فيه وغير ضروري وكانت تكتفي بردها المعتاد: «الوقاية خير من العلاج».

لم تكن وقاية، كانت وجعاً دائماً، بالنسبة إلى المراهقة التي كنتها.. وقد أصبحت النظافة السبب الرئيس في خلافاتنا.

كان والدي يقضي طول النهار بالمحل ويأتي آخر الليل ليتعشى وينام.

وكلما حاولت أن أشتكي له من يامنة يقول بأنه فخور بها وأن علي أن أتعلم منها كيف أكون ربة بيت مثالية.

لكنها بدأت شيئاً فشيئا تقضي وقتاً أطول في التنظيف، مما جعل والدي وأخي ينتبهان بدورهما إلى أن هناك خللاً في تصرفاتها: تغسل الشيء وتعيد غسله عشرات المرات، ثم تغسل يديها بالصابون وتفركهما مرات ومرات إلى أن ينز الدم منهما. أما الوضوء، فقد أصبح مشكلاً أساسياً، تستنجي وتعيد الكرة حد الجرح أحياناً.

انتقل هذا الهوس إلى الصلاة نفسها، تصلي وتشك في عدد الركعات فتعيد الكرة من جديد، وقد يستمر هذا لساعات.

هذه الأزمات المتفرقة أصبحت مزمنة واتسعت مجالاتها:

فما إنْ تهم بالنوم حتى تنهض من الفراش لتتأكد من أن الباب قد أحكم إقفاله، وأن النوافذ كلها مغلقة. .

تشك في كل شيء وتعيد المراقبة لعدة مرات.

أخذها والدي إلى الطبيب الذي شخص مرضها، وقال إن عليها أن تقضي وقتاً في المستشفى، بعيداً عن المحيط الذي تعيش فيه. رفضت الاستشفاء وحصص العلاج النفسي وخضعت لعلاج بالأدوية تحت مراقبتي.

في السن التي كانت زميلاتي من الطالبات يكتشفن خلالها الحب وحياة باريس الساخنة، كنت أنا سجينة سجن والدتي التي ما فتئت حالتها تزداد سوءاً: فالخف الذي تلبسه في المطبخ يبقى أمام باب المطبخ، وترتدي آخر لباقي البيت. الشراشف لا يمكن خلطها ببعضها، والثلاجة ترزح تحت نظام صارم. أما الحمام، فذاك مسلسل من مسلسلات الرعب.

وجاء يوم، عدت من الثانوية ليستقبلني صراخها. كانت قد أغلقت على نفسها في الحمام والماء يتسرب من تحت الباب. اتصلتُ هاتفياً بوالدي الذي جاء في الحال. كسّر الباب بعد محاولات فاشلة في إقناعها بفتحه. ليجدها تحت وقع نوبة من الرعب داخل الطست الذي يفيض ماء وهي تفرك وتعرك جلدها، وكأن ملايير الميكووبات تهاجمها. تصرخ باكية كأنها تخاطب شبح الوسخ:

- ابتعد عني . . ابتعد عني .

لم نستطع أن نهدئ من روعها. طلب والدي سيارة إسعاف، وأخذناها إلى المستشفى حيث قضت ستة أشهر قبل أن تلفظ أنفاسها ذات ليلة بغرفتها دون أن يجد الطاقم الطبي تفسيراً علمياً مقنعاً لوفاتها.

رحلت دون أن تخلف وصية. . كسرت قيودها بنفسها وحلقت نحو السماء.

وعندما طلبوا من والدي أن يأذن لهم بتشريح جثتها لمعرفة سبب الوفاة، رفض قائلاً:

«لقد شرحتها الحياة بما يكفي».

قبْلها، كان سماع الحكايات مهنة أزاولها. . وتدوينها حرفة أتقنها.

معها، أصبح الإصغاء عبادة. .

أنصت إلى كل كلمة تنبعث من شفتيها بخشوع، ولا أدوّن شيئاً. .

إذ كيف أسمح لعزلة الكتابة أن تشغلني عن حبها.

وها أنا الآن، بعدها، محكوم بالكتابة عنها. .

لم تعد الكتابة اختياراً، أصبحت هواء يملأ الفضاء كحضورها.

وأضحت ذاكرتي تفرز كل كلمة خزنتها، في غفلة مني، تنير دهليز الموت البارد.

أكاد أسمعها. . بل أسمعها تقول وشعرها المتمرد مبعثر على كتفي:

- أين وصلتُ في الحكاية؟ أما كان الأجدر بك أن تسجل؟
- وصلنا إلى وفاة يامنة.
- آه معك حق، لأتمم إذاً:

«حزنتُ كثيراً على موت يامنة رغم أننا لم نكن قريبتان من بعضنا، ولا استطعتُ يوماً أن أحبها كأم أو أن تحبني هي كابنة.

لا أنكر أنني قد أحسست بنوع من الخلاص خلال الشهور التي قضتها بالمستشفى، لكن موتها جعلني ألمس مدى العذاب الذي عانت منه.

مسكينة يامنة! عاشت أبشع سجن يُقدّر على مخلوق: أن تكون سجين حركاتك، سجين هوسك.. سجين خيالك.

الخيال الذي يتخذه الإنسان أحياناً درعاً واقياً ضد الواقع يحرره ويجعله يحلق عالياً، هو الخيال نفسه الذي صبغ واقعها بلون الشك والارتياب.

سجن يامنة المرضي جعلني حتى بعد رحيلها لا أطيق البقاء في البيت.

ركن واحد كنت أرتاح فيه: هو المطبخ الذي كنت محرومة من ولوجه في حياتها، لأنها لم تكن تتحمل أن ألمس شيئاً أو أن أغير شيئاً من مكانه.

أصبح المطبخ بعدها، بالنسبة إلي، مثل مختبر أجرب فيه كل شيء بحرية وفوضى شاملة. اشتريت كتب الطبخ وبدأت أجرب أطباقاً أضيف إليها تنويعات من ابتكاري.

أذكر، وأنا في قسم الباكالوريا، يوم نظمت الثانوية لقاءات للطلبة مع ممثلين لمجالات مهنية مختلفة لمساعدتهم على اختيار توجيهاتهم الجامعية. هناك، التقيت مع من سيصبح أستاذي وصديقي وأبي الروحي: الشاف هيروكي - صاحب الصورة فوق المنضدة - وقد جاء ليحدثنا عن مدرسة الفندقة وشعبها وعن فن الطبخ.

في نهاية الحصة اتجهت نحوه كما نتجه نحو أمل منشود. قلت له بأنني مولعة بفن الطبخ وأود أن أجعله مهنتي. سعد الشاف هيروكي بحماسي، وقد كنت الطالبة الوحيدة في دفعتي التي اهتمت بمحاضرته، ووعد بأن يساعدني على تحقيق حلمي.

حفزني هذا اللقاء على اجتياز امتحان الباكالوريا بتفوق، رحلت بعده إلى أعتق مدرسة للفندقة في فرنسا، وكانت توجد في مدينة بوردو.

كان اختياري محبِطاً لوالدي الذي كان بحاجة لمن يعتني بالبيت، كما كانت له مشاريع أخرى: كأن أتزوج بمغربي مهاجر وأبني عشّاً.

«لا، لن أكون خليفة يامنة بهذا البيت ولا بأي بيت آخر.. لن أخرج من سجن والدتي لأدخل آخر بحجة أنني ابنة لرجل أمازيغي لم يتحرر كلياً من إرث قبيلته». فكرت في نفسي.

«لستِ في المغرب، أنت في فرنسا.. وليس باستطاعة أحد أن يرغمك على شيء ولا حتى والدك، لست قاصراً بنظر القانون

الذي يحميك»، قال لي الشاف هيروكي الذي اتصلت به باكية. حسمت قراري وقد أصبح لي أب آخر أعول عليه».

انقلبت إسلان على بطنها، فأصبح وجهها قريباً من وجهي، بحيث كنت استنشق أنفاسها وهي تحكي:

«سافرت إذاً لدراسة فن الطبخ بمعهد الفندقة في بوردو، الذي سجلني به الشاف هيروكي وقد كان رئيساً لقسم فن الطبخ بالمعهد.

كان يَدرس معي طلبة من مختلف بلدان العالم، كل يجلب معه ذاكرته الذوقية وطريقته الخاصة في التعامل مع التوابل والأطباق.

هناك، أحسست بأن علي أن أجوب العالم لو أردت أن أصبح فنانة تبتكر توابل ونكهات جديدة، وليس حرفية فقط.

أدركت أن المدرسة لن تمنحني أكثر من الأدوات الضرورية والأولية، وعلي بعد ذلك أن أطورها، أن أبلورها، أن أجددها كمبدعة حقيقية.

أنهيت دراستي بتفوق وعملت طباخة متدربة في أكبر المطاعم.

بعد أن أحيل الشاف هيروكي على التقاعد، عاد إلى بلده وبدأت أنا جولتي التي حلمت بها.

«اذهبي لغزو العالم من خلال حاسة الذوق وتزوّدي فكرياً وحسياً بكل ما هو جميل»، قال لي. وكذلك فعلت.

كنت أقضي في كل بلد سنة أو سنتين حتى أسبر أغوار أطباقه. لم أجد قطُّ مشكلةً في إيجاد عمل في أي بلد حللت به.

ما إن يبدأ الروتين في التسلل إلى حياتي، بعد أن أكون قد استوعبت أسرار الطبخ في بلد معين، حتى أشد الرحال إلى بلد آخر.

جئت لندن من سنة فقط بدعوة من مدرسة الفندقة..».

قاطعتها مشاغباً:

- بل جئت بدعوة مني بعثتها لك مع القدر.

ضحكت، وهي تلتصق بي قائلة:

- طريقة لبقة لقول «استراحة».

ضممتها إليّ برفق رغبة مباغتة. بدأت أمرر لساني على لحمة أذنها وأنا أهمس:

- لنترك مجالاً لحاسة الذوق.. يا سيدة الذوق..

ولسان حالي يقول:

«مختلفة فصولنا.. فاعذري حساسيتي للبرد، ووخزات ألم خفيف في الظهر، تجبرني على احتضانك في وضعية قد ترينها تقليدية».

نزلنا ببطء من سفر الحواس لنهطل على الأرض. .

وعدت لأسألها عن سفرها إلى اليابان، وكأننا نخرج من مزدوجتين:

- هل سبق لك أن زرت اليابان؟

- أجل مرات عديدة. . أذكر أنني قد تلقيت خبر وفاة والدي وأنا في اليابان. .

- حدثيني عن الشاف هيروكي. . فأنا متشوق لمعرفة الكثير عن هذا الرجل الذي أدى دوراً مهماً في حياتك.

وجاء صوتها كمعزوفة ناي ياباني:

«أول زيارة لي لليابان كانت رفقة هيروكي، وبدعوة منه.

كان يسافر بأمتعة قليلة جداً، ولا يحتفظ إلا بالأساسي مؤمناً بأننا لا نمتلك الأشياء لكن الأشياء هي التي تمتلكنا.

كان بيته بمدينة أوكازاكي التي تقع وسط محافظة إيتشي،

يعكس فلسفته في الحياة، فقد كان شبه الفراغ بداخله يجعل الحركة تنساب فيه بحرية ويمنح الإحساس بالسكينة.

قال ملاحظاً دهشتي، ونحن نلج سكنه:

«يوجد الشيء بفضل الفراغ المحيط به، فبدون فراغ لا يوجد الجمال، وبدون صمت لا توجد الموسيقى، وتراكم الأثاث يعرقل حركة الإنسان الذي يصبح في خدمة الأشياء عوض أن تكون الأشياء في خدمة الإنسان».

مضيفاً: «إننا نلبس المكان كما نلبس قميصاً، ولهذا عليه أن يكون على مقاسنا، يشبهنا، نرتاح داخله، ونتحرك بحرية».

بيته المطل على نهر سوغو يوجد على بعد أمتار من حديقة مشهورة تضم مجسم توكوغاوا إياتسو زعيم الحرب الذي وحد اليابان، وقصر أوكازاكي ومتحف ومطعم صغير كنا نرتاده لتناول طبق يُعدُّ اختصاص المنطقة، هو طبق الباذنجان بالميسو هاتشو وهو عجين مستخلص من فول الصويا المعروف بخصائصه الطبية، حيث كان يُعتمد في علاج ضحايا تشرنوبيل.

هناك، وقفتُ على عالم ساحر يجمع بين جمال الطبيعة وجمال الروح البشرية، كما اكتشفت توابل جديدة لا أزال أحتفظ بها ضمن علبة التوابل».

صمتت إسلان قليلاً، قبل أن تسترسل في تأمل:

«أكاد أراه في المطبخ في بيته وأنا أحاول أن أجرب طبقاً

يابانياً من دون أن أتوصل إلى النتيجة المنشودة. وهو يقول لي بهدوئه المعهود:

«إذا أخلفتِ موعداً مع قطار فعليك أن تنتظري الآخر، لكن هذا ليس قدراً إذ يمكنك تغيير وسيلة نقلك، كأن تستقلي حافلة أو باصاً أو طائرة حتى.. أنت ومجهوداتك. كذلك الأمر بالنسبة إلى الطبخ، هناك طرق ووسائل متعددة توصلك للنتيجة نفسها.. أنت ومجهوداتك».

زرته بعد أن أحيل على التقاعد مرات عديدة، فقد تعلمت منه الكثير، وكثيراً ما استعنت بحكمته لتخطي صعوبات الحياة. كنت أغبطه على السكينة التي يتمتع بها وعلى تصالحه مع العالم وتفاديه محاولة السيطرة على غير ذاته.

كنت أسجل في مذكرة أقواله وأعود إليها كلما ضاقت بي الحياة، كقوله مثلاً:

«تعلمي أن تلقي في سلة المهملات كل الأشياء التي تثقل كاهلك وتعرقل طريقك بما فيها الأفكار، بل وخاصة الأفكار، فكلما تخلصت من فكرة سلبية إلا وفسحت الطريق لأفكار إيجابية كي تجد سبيلها إليك، فالأفكار السلبية تضعف مناعتنا ضد المرض وضد التعاسة.

كذلك بالنسبة إلى الانفعالات: الغيرة، الحقد، الحسد، الغضب.. تحرري منها، إنك لن تجدي السكينة ما لم تسامحي

وتطوي الصفحات الملطخة. . احرقيها يتفتح قلبك لصفحات عذراء. . اهتمي بعالمك الداخلي كثيراً، فعالمنا الداخلي بإمكانه أن يؤثر على العالم الخارجي. . اختاري أن تكوني سعيدة وسوف يتجاوب معك العالم على هذا الأساس».

أذكر حين زرته يوماً بالمصحة وكان قد أصيب بكسر في الورك إثر حادثة سير.

دخل علينا الطبيب سائلاً هيروكي إن كان يقبل بإجراء عملية تغيير مفصل الورك أم يفضل أن يلزم السرير لأسابيع. أجاب هو دون تردد:

«أفعل ما بوسعه أن يمكنني من الوقوف ثانية في أقرب وقت».

تدخلت أنا قائلة:

«أخاف عليك من العملية الجراحية يا صديقي. إن كان بإمكان الورك أن يجبر لو أنت لزمت الفراش لمدة، فلماذا تخاطر بنفسك؟»

أجابني:

«عندما يسقط إنسان مسن يكون هذا السقوط هو بداية النهاية. . الكسر في عظم الورك يشده إلى السرير لينحدر منه شيئاً فشيئاً إلى القبر».

ثم أضاف بحكمته العميقة:

«الإنسان لن يتعلم الحياة ما لم يتعلم الوقوف. وعليه بعد

هذا أن يحافظ على قامته منتصبة ما دام حياً وأن يرفض كل ما يغريه بالراحة من أي نوع كانت، فهذه الراحة لها مفعول العكاز ليس إلا، إن هو اعتاد عليه مالت قامته وانكسرت هامته، لأننا يوم نتخلى عن الوقوف نتخلى عن الحياة».

فارق الحياة منذ ست سنوات تقريباً. حزنت حزناً عميقاً عندما بلغني خبر وفاته وقد قضى ضحية الفيضانات التي اجتاحت مدينة أوكازاكي. كنت قد غادرت اليابان منذ أسبوع فقط لألتحق ببوردو، حيث كنت أترأس لجنة تحكيم جائزة الطبخ التي تنظمها مدرسة الفندقة سنوياً».

عبرت نبرة حزن صوتها، قاطعتها هامساً وقد أحببت شخصية هيروكي:

- هو الذي كثيراً ما تماهى مع الطبيعة، أبى إلا أن يرافقها في نوبة من نوبات غضبها، فتجرفه المياه مع التربة والعشب والأشجار والحيوانات.

- أجل.. أذكر أنك سألتني مرة عن سر ممارستي لليوغا.

- نعم حبيبتي، وأذكر أنني لم أحصل منك على جواب.

- الجواب هو أنني، لسبب مجهول، بعد وفاته مباشرة وجدتني، أنا التي لم أفلح يوماً في الوصول إلى حالة استرخاء كلّي تجعل فكري يتحرر من جسدي وينطلق في حالة تأمل، أمارس اليوغا وكأنني ألبي وصية غير معلنة لهيروكي.

بدأتُ تدريجياً أتعلم كيف أخرج من ذاتي وأجلس أمامها، أنظر إليها في حياد. . أتجاذب معها أطراف الحديث كصديقين حميمين.

مستحضرة أقواله يوم كان يحاول أن يلقنني دروساً في اليوغا وتقنيات التأمل.

كأن يقول، على سبيل المثال:

«تشنج الجسد من تشنج الفكر والروح. . التأمل غذاء للنفس يمكّنها من تجديد نفسها. دعي مياهك تهدأ لتنعكس عناصر الطبيعة على صفحة روحك، ركزي على صمتك الداخلي، اجعلي ذاتك تصمت ودعي الأفكار تمر عبرها كما يمر السحاب عبر السماء. لا تفكري في الحياة بل كوني أنت الحياة».

أو قوله:

«لتتحرري، لتنطلقي في الحياة، لا بد من أن تقطعي الحبل السري الذي يربطك بأوضاعك المريحة، تماماً كما الجنين داخل الرحم الدافئ، لأن الرحم ليس الحياة إنه فقط مهيئ لها».

هكذا، وجدتني شيئاً فشيئاً، أتخفف من قلقي الوجودي، ومن القلق بصفة عامة، وقد اقتنعت بأن القلق مجرد فكرة قلما ترتبط بواقع ملموس.

صمتت إسلان وقلت أنا:

- أنت محظوظة، كم تمنيت أن يكون لي أب روحي أتعلم منه حكمة.. تكفلت الحياة في غيابه بتعليمي.

- ماذا علمتك الحياة؟

- قالت لي: أن تعيش هو أن تتعلم المضي قدماً مثقلاً بما ينقصك.

- أجل حبيبي.. أول ما نتعلمه منها هو أننا حتماً نفقد من نحبهم وعلينا أن نستمر من دونهم.

انتابني رعب ساعتها، وأنا أفكر في نفسي، بأنني لست مستعداً لأن أفقدها.. ولا أعتقد بأنه من الممكن أن أستمر بعدها.

الحب بعد الستين جبارٌ ونهائي.. ليس لديه متسع من الوقت وقد ابتلع حصته من الانتظار.

التقينا في زمن الحب المقتضب كالرسائل الإلكترونية..

وأحببتها على طريقة زمن الرسائل المعتقة كنبيذ الشفاه.

قبلتها بحدة خوفي وأنا أستعيد بيتاً شعرياً لعمر الخيام:

«اسعد باللحظة

فهذه اللحظة هي حياتك».

بعين لندن، ونحن في الأعالي نستمتع بجمال المدينة وبسحر نهر التايمز الممدد تحت أقدامنا. سحبتُ فجأة من جيب سترتي علبة صغيرة بها خاتم خطوبة. فتحتها وقدمته لها، على الطريقة الأوروبية، قائلاً.

- إسلان، يا أروع عروس عرفتها في حياتي، هل تقبلين أن تكوني عروسي؟

وضعتْ يديها على فمها لتحبس صرخة دهشة وقد اغرورقت عيناها من الانفعال.. وعجوز تقاسمنا الكابينة، تتابع بفضول حديثنا.

انتابني خوف من أن أكون قد اندفعت. قلت متلعثماً:

- معذرة إن فاجأتك بهذه الطريقة..

ردت هي بصوت مرتبك:

- لا.. نعم.. أعني لا.. هي مفاجأة فعلاً. لكنها أروع مفاجأة..

تنفست الصعداء. قبل أن تتم كلامها:

- نعم. . وألف نعم.

وهي ترتمي إلى عنقي لنلتحم في قبلة ساخنة.

تصفق العجوز بحماس وهي تلقي بـ:

Yes

قبل أن تضيف بفرح صادق:

Congratulations

رددنا معاً ونحن متعانقان:

Thank you so much

بعد أن حط بنا دولاب عين لندن على الأرض، قالت إسلان ونحن على الرصيف المحاذي لنهر التايمز:

- فؤادي، عندي رجاء.

- مُري حبيبتي.

- أريدك أن تصحبني إلى بيت أخي قاسم في باريس وتطلب يدي منه بشكل رسمي. إنه أسرتي الوحيدة وأعلم كم سيكون سعيداً بطلبك.

ذهبنا خلال نهاية الأسبوع عند قاسم الذي، كما توقعت إسلان، كان في غمرة السعادة وهو يقرأ معي الفاتحة، كما شهد بعد ذلك على عقد قراننا.

كان لقاسم ثلاثة أطفال من زوجة مغربية. بدا مندمجاً في المجتمع الفرنسي كما يليق بمهاجر ناجح، يتمتع بسمعة جيدة في أوساط المهاجرين التجار.

تحدثنا طويلاً وأنا أسأله عن وضعية الجالية المغربية في فرنسا، فكثيراً ما كتبتُ عن وضعية المهاجرين في لندن لحساب الجريدة. قال:

- على التاجر أن ينتبه جيداً إلى سمعته.. يقول المثل الأمازيغي: «اللّي ما عَنْدُو رَاسْ المالْ المعْقُولْ رَاسْ مَالُو».

مضيفاً بكثير من الأسف:

- لقد تم مؤخراً اعتقال بعض التجار الأمازيغ بتهمة المتاجرة في العملة الصعبة.

سألتُ:

- وهل فعلاً يتاجرون فيها؟

- نعم ولا.

- كيف ذلك؟

- منذ كنت أشتغل مع والدي رحمه الله، لاحظت أن المهاجرين المغاربة يعتبرون التاجر مثل مدير بنك خاص لا يخضع لقوانين فرنسا، يقرضهم المال دون فوائد، كما يستودعونه قدراً من المال بالعملة الفرنسية شهرياً، مثلاً، يسدده لهم هو في المغرب خلال العطلة الصيفية بالدرهم. وهكذا يستفيد الجميع: التاجر يستعمل ما يدخره الآخرون عنده ليستثمره في تجارته دون أن يحتاج إلى قروض من البنك، والزبون يدبر أموره المالية بعيداً عن التعقيدات الإدارية، خاصة إذا كانت وضعيته في فرنسا غير قانونية، كما كان يجد فيه بعضهم حلاً لقضية الرّبا.

كنت أرى في هذا شكلاً من أشكال التضامن والتآزر بين المهاجرين.

لكن الحكومة الفرنسية لا تنظر إلى نظامنا بعين الرضى، بل على العكس تعتبره خارجاً عن القانون وتعاقب عليه بتهمة تبييض الأموال من جهة والتعامل كبنك دون رخصة من جهة أخرى. ولهذا كانت الأمور تمر بسرية تامة وكان أساس التعامل هو الثقة.

كان والدي رحمه الله، ينضم إلى هذا النظام الاجتماعي المصغر، بحكم أنه استفاد منه شخصياً، فقد أقرضه الجميع لشراء أول دكان له. وكان من الطبيعي أن يستمر فيه لمساعدة الآخرين وتنمية تجارته على حد قوله، لكنني بعد وفاته امتنعتُ عن هذه الممارسات لأن القانون لا يرحم. فهؤلاء التجار الذين اعتُقلوا منهم من حكم عليه بالسجن ومنهم من خرج بكفالة والأخطر هو أن منهم من ألصقت به تهمة الإرهاب وقد ساعد، دون نية مسبقة، بعض العناصر التي كانت تدعم جماعات إرهابية. فقد تأثرت فرنسا، كباقي دول العالم بأحداث الحادي عشر من سبتمبر التي كان المهاجرون العرب أول من أدى ثمنها.

قضينا وقتاً ممتعاً بصحبة قاسم وأسرته قبل أن نستقل الطائرة من باريس إلى أغادير التي أرادت إسلان أن نقضي فيها شهر العسل.

استأجرنا غرفة في أحد الفنادق المتراصة على الشاطئ، فأغادير تكاد تكون مدينة الفنادق.

- أكتشف الآن مدينة أخرى. . لقد تغيرت أغادير كثيراً. . إلى الأحسن طبعاً. . لي بها ذكريات طفولية جميلة، فقد كنا نقيم بها كلما جئنا المغرب لقضاء العطلة الصيفية. قالت إسلان بفرح بالغ، قبل أن تضيف.

- آخر مرة زرتها لم تكن «المارينا» قد بُنيت، أليست رائعة؟

- بلى.

غادرنا الفندق دون وجهة محددة، تاركين لأقدامنا مبادرة حملنا عبر شوارع أغادير، المدينة التي نهضت من تحت أنقاض زلزال أطاح بها منذ ما يناهز خمسة عقود، وأودى بحياة الآلاف من أبنائها، لترفع رأسها من جديد في شموخ.

المدن على عكس الإنسان تعيش حيوات متعددة.

عبَرنا حديقة أولهاو المعروفة باسم «حديقة العشاق»، ثم وادي الطيور، قبل أن نتوقف في ساحة الأمل، حيث أحسسنا بالجوع. دخلنا أحد المطاعم، تناولنا وجبة خفيفة، ثم واصلنا تيهنا، وإسلان تضيف إلى معلوماتي التاريخية بعض أسرار المدينة التي لا يعرفها سوى أبناؤها.

الغروب في أغادير فتنة حقيقية، تجمع بين الدفء والإغراء. ونحن قبالة البحر نستمتع بحمرة الأفق، أشارت بيدها نحو مبنى أمامنا على شكل باخرة بمحاذاة الشاطئ:

- هذا هو المطعم الذي أحلم به. . مطل على الشاطئ. .

تصور حياتنا هنا بعيداً عن ضباب لندن. . البحر والشمس ودفء الجوار. . أنا أفتح مطعماً وأنت تكتب روايات. . ما رأيك؟

- فكرة رائعة. . لا شيء يشدني إلى لندن. . ويمكنني أن أعمل مراسلاً للجريدة من هنا. . ثم. . أنا خلقت لكي أحقق أحلامك.

كنت مستعداً لأتبعها إلى الجحيم حتى، فكيف وهي تعرض عليَّ الجنة!

هكذا، بتلقائية السعادة، رسمنا للنداء خرائطه. . فلا بوصلة سوى العشق.

الفصل الثاني

على متن طائرة تشقّ السحاب، أحاول أن أجد وضعية مريحة تمكنني من الاسترخاء قليلاً.. علّ ذهني يهدأ من اجترار صخب أفكاري.

بجواري على اليمين امرأة تحضن رضيعاً مستغرقاً في نوم ملائكي. على يساري رجل لا يرفع أنفه عن جريدة «لوموند»، وأنا بينهما أغمض جفنين زادهما التعب تيقظاً بعد أن فشلت في التركيز على رواية اقتنيتها من كشك مطار لندن.

يستيقظ الرضيع على صوت المضيفة وهي تعلن عن نزول الطائرة بمطار محمد الخامس.. يبتسم لي. أردّ على ابتسامته وكلي رغبة في ضمه إلى صدري.

غادرت المطار مباشرة نحو المدينة التي شهدت اصطدامي الأول بالحياة.

هي ذي أزمور التي هجرتُ منذ أزيد من ثلاثين سنة.

وصلت البيت الذي بدا وكأنني غادرته البارحة. لازالت رائحة ربيعة تعبق في المكان والغرف مصففة بعناية.. لا شيء جديد غير الغبار.

دخلت غرفتي وألقيت بتعبي على السرير.

أكاد أسمع الزغاريد وأكاد أرى ربيعة وهي عروس فاتنة الجمال في ليلة زفافنا.

أجرح أنا فخذي بشفرة حادة وألطخ سروال العروس بالدم ثم أمده لحشد ينتظر أمام الباب ليرقصوا ويغنوا حوله:

«هَاكَّا يْكُونوُ بْناتْ أرْجَالْ المَحْضِيّه، هَاكَّا يْكُونُو بْنَاتْ حَمْراتْ الشَّاشيَّه.».

ثم أقول لها:

«حاولي أن تنامي الآن، إنك مرهقة».

تاركاً لها السرير لأستلقي فوق لحاف على الأرض.

مشاهد كثيرة من ماضيَّ البعيد تعبر ذاكرتي التي أصبحت مثل شاشة تليفزيون موصولة بقنوات شتى. أكون بصدد متابعة قناة فإذا بمشاهد من أخرى تعبر وكأن يداً خفية تسيّر جهاز التحكم عن بعد:

أكاد أشعر بارتباكي وأنا أقول لوالدتي، مبرراً السرعة المفرطة التي قررتُ بها الزواج من ربيعة، بأنني أحبها منذ زمن بعيد وأخاف أن يسبقني أحد لخطبتها فتضيع من بين يدي. ثم

يعز عليَّ تركها لوحدها دون من يؤنسها. وليس أمامي سوى أسبوعين قبل العودة إلى فرنسا.

أذكر فرح والدتي ونحن نتجه إلى بيت ربيعة.

وافق والدها الذي كان يعزني كصديق حميم لابنه صلاح، وتمنى لو كان حاضراً بيننا أخوها الذي، لسبب مجهول، اضطر إلى السفر إلى أمريكا.

أصرت والدتي على تنظيم حفل زفاف يليق بنا رغم التعبير عن رغبتي في إقامة حفل صغير.

«أزمور مدينة صغيرة يعرف فيها الناس بعضهم بعضاً ويتشبثون بالتقاليد.. سوف أعمل كل جهدي كي تظل ليلة زفافك بربيعة حدثاً يضرب به المثل» قالت، وكذلك كان.

رحلتُ مباشرة بعد العرس لدروس تنتظرني، تاركاً ربيعة مع حماتها في أمان بعد أن وعدتها بأن لا أخلف عطلة إلا وآتي لزيارتها.

دخلتُ غرفة والدتي، أغراضها لا تزال بمكانها المعتاد.

يلح عليَّ مشهد صلاح وقد هرب من بيتهم ليلة زفاف والده ليختفي عندنا:

لم يتحمل صلاح الذي فقد والدته في السادسة من عمره أن يتزوج والده بعد شهور معدودة من وفاة أمه بابنة عمها زينب، التي كانت تعيش في البيت منذ أتت بها المرحومة من البادية لتربيتها وتعليمها.

«كيف تحتل زينب «المفعوصة» مكان ماما»؟

يصرخ باكياً وأمي تحاول أن تهون عليه فأجهش بدوري بالبكاء.

تضمنا والدتي إليها.. وتسمح لنا معاً بالنوم في فراشها.

شعرتُ ساعتها بأنني أكثر حظاً من صلاح إذ لدي أم حنون، وتمنيت من كل قلبي لو كان صلاح أخي حقاً.

كان لطفولتي عنوان اسمه صلاح.. صلاح، الصديق والأخ الذي لم تلده أمي.

تصعد زفرة من عمق الماضي وأذكر بحدة يوم حفل عقيقة ربيعة:

بقدر ما كان صلاح حزيناً يوم زواج والده، كان يشع فرحاً يوم ولادة أخته.

كانت أول مرة يرى فيها مولوداً فانبهر بضآلة حجمها. ازداد سعادة عندما لقبوها، نزولاً عند رغبته، على اسم والدته.

بعد أسابيع معدودة، سمحت له زينب بأن يأخذها بين ذراعيه، لتتفرغ هي لأعمال البيت. فبدأ يقضي ساعات في تأمل وجهها الملائكي الصغير، يضحك لضحكها ويبكي حزناً لبكائها. يطعمها الحليب بالرضاعة ويغير حفاظاتها.. كانت دميته المحببة وعالمه السحري، بحيث أصبح يفضل الاعتناء بربيعة على أن يلعب معي. انزعجت أنا لمجيء هذه اللعبة التي أخذت مني صديقي.

بدأت الدمية تكبر، وهو يتابع باهتمام كبير وفضول أكبر نموها، اقتنى دفتراً وقلماً، ونحن مازلنا حديثي العهد بالكتابة،

وأخذ يسجل فيه، كما تفعل أم فخورة بذريتها، كل تطور يحدث عندها:

وضعية الجلوس يوم كذا، أول سن يوم كذا، أول خطوة يوم كذا،.. وهكذا.

كان والده الحاج الطيب وزينب سعيدين بعلاقة الأخوة بينهما. فصلاح المشاغب تغيرت طباعه ولم يعد عنيفاً مع زوجة والده التي كان يعجبها أن تردد أمام العائلة بأن حرمانه من حنان أمه جعله يوجه كل عاطفته نحو أخته.

كان واضحاً لدى الجميع بأن ربيعة تقاسمه الإحساس نفسه، وتحب اللعب معه، بل وتفضل صحبته على صحبة والدتها.

عندما دخلت المدرسة، نصّب نفسه معلمها الخصوصي الذي يلقنها كل ما يعرفه ويساعدها على إنجاز تمارينها المدرسية.

وعندما بدأت أنوثتها تشكل تضاريس آسرة على جسدها البَضّ، لم يفهم كيف بدأت تختفي لتغيير ثيابها أو تقفل وراءها باب الحمام. كيف تخجل منه؟ أما يعرف جسدها منذ أقبلت إلى الدنيا؟ أما تربت على يديه وهو طفل؟ لماذا عليه الآن أن يغض الطرف عنها؟

وهو طفل، كان يجيب عندما يُسأل عن التي سيتزوجها عندما يصبح كبيراً:

«سأتزوج ربيعة». يضحكون منه قائلين: «لا يا أحمق ربيعة أختك ولا يمكنك الزواج منها». فيبكي طويلاً.. كيف يعقل أن يتزوجها آخر لا يمكن أن يحبها مثله؟

أجوب أركان البيت.. تستوقفني بصالة الجلوس صور، بالأبيض والأسود، ما زالت تحرس الجدار:

صورة زفافي بربيعة، صورة لوالدي بجلباب أبيض وطربوش أحمر وصورة لوالدتي وهي تحمل الطاهر بين يديها.. ثم صورة باهتة لي مع صلاح ونحن نصطاد السمك. تعيدني ابتسامته التي تشع من الصورة إلى سنوات مراهقتنا حين كان محط إعجاب زميلات ربيعة في الثانوية، مجسداً «ظاهرة الأخ الأكبر» الذي تفتتن به أخته الصغرى وصديقاتها.

كان يعتبر من واجبه الحرص عليها كشيء ثمين قد يطمع فيه من هب ودب.. وقد أصبحت أنثى رائعة الجمال. لهذا كان يصطحبها كلما استطاع من البيت إلى الثانوية ومن الثانوية إلى البيت.

وكثيراً ما كان يطلب مني مرافقته لثقته في أخلاقي.

لا أنكر بأنني كنت، كباقي شباب أزمور، معجباً بربيعة، لكنه كان إعجاباً بالجمال في أبهى تجلياته. لم أكن أشعر تجاهها بميل غرائزي، كانت بالنسبة إلي مثل إلاهة إغريقية، كالشمس أو القمر، نفتن بجمالها عن بعد.

فضلاً عن كوني من النوع الذي يقدّس علاقات الصداقة، والصداقة التي تربطني بصلاح تجعلني أمنع نفسي من مجرد التفكير بأخته.

استيقظت من أفكاري واتجهت نحو نافذة الصالة أفتحها لأهوي الفضاء..

مشهد نعش والدتي وهو يغادر الصالة، وأنا أجر الخطى خلف المحمل، يعبر ذاكرتي.

إحساس مبهم باليتم يراودني.. كما ليذكرني بأن بإمكاني زيارتها والتحدث إليها.

تركت البيت لأشباحه وخرجت.. ملبياً نداء المقبرة.

جلست في خشوع بجانب المأوى الأبدي لوالدتي، فكثيراً ما تحدث الصمت بيننا. لقد كان تواطؤنا عميقاً، بحيث يكفي أن نجلس قرب بعضنا ليتسرب إحساس الواحد إلى الآخر، وكأن ذبذبات خفية تسري بيننا.

أدركت الآن، في قرارة نفسي، بأن الحب هو السلاح الوحيد ضد الموت.. لأنه الوحيد الذي يستمر بعده.

كم من الوقت قضيت تحت شمس حارقة، وأنا أحكي لها عن إسلان وعن مشاريعنا المقبلة؟

نهضت متثاقلاً، كأنما أجر خلفي أحجار القبر، يغمرني إحساس برضى أمي.

غادرت المقبرة وابتسامة، كنسمة أمل، تستعيد مكانها على شفتي، وأنا أستحضر مقولة لروني شار:

«أن تعيش هو أن تُصِرَّ على إكمال ذكرى».

وادي أم الربيع، والقوارب تختال فوقه. .

لا شيء تغير هنا. . نكاية في من قال بأننا لا نستحم في النهر مرتين.

أكاد أراني بصحبة صلاح نعبر على متن قارب أبّا العربي إلى الضفة الأخرى، حيث ضريح «لالّة عائشة البحرية»، لمعاكسة الفتيات اللواتي يأتين لرمي أغراضهن الخاصة من خصلات الشعر أو ملابس داخلية أو مشط أو. . كلانا في السن التي لا تعرف المستحيل، طالبان بالثانوي أمامنا امتحان وأحلام تنتظر أن تتحقق.

كان صلاح يحس باختناق في أزمور ويحلم بفضاء أرحب وبعالم بلا قيود.

«الإنسان بطبعه رحال والاستقرار هو ما جعله كالحيوانات الداجنة فاقداً لكل غرائزه الطبيعية»، كما يعجبه أن يقول.

هذا مكانه المفضل على ضفة نهر أم الربيع. هنا، كان يلتف حوله جمع من شبان أزمور، ونقاشات حادة تدور بينهم.

صلاح لا يؤمن بشيء ولا شيء عنده مقدس.

«كل القوانين، كل المعتقدات، كل النظريات هي من خلق الفكر البشري ولهذا فهي قابلة للنقاش، لإعادة النظر، للتغيير»، يقول بحماس.

بقدر ما كان صلاح طالباً نجيباً كان متعباً لأساتذته.. كل نظرية عنده قابلة للنقد، والناقد الحقيقي من يبدأ بنقد أساتذته.

«الفكر هو ما يفرق الإنسان عن الحيوان»، يصرح، ومقولة ديكارت: «أنا أفكر، إذن أنا موجود» تأخذ كل أبعادها في حياته اليومية.

يقضي وقته في تفكيك الأفكار وتركيبها، في طرح الأسئلة المعقدة والمؤرقة.

كان زملاؤه يشهدون له بذكاء خارق، وفي الوقت نفسه، يجدونه صعب المعاشرة، غريب الأطوار، يرهقهم بأسئلته التي لا أجوبة لها، ويخلق حوله جواً من القلق:

«ما الخير؟ وما الشر؟

أليست الأخلاق من صنع المجتمعات لضبط الغرائز الطبيعية لأفرادها؟

وكيف يكون الإنسان حراً وهو يحارب غرائزه؟

أي فضيلة في أن تتجرد مما هو طبيعي وبدائي فيك؟

أليس كبت غرائزنا هو ما يجعلنا نتصرف بهمجية مثل الحيوانات الشرسة وليس العكس؟

ما هو الحد الفاصل بين المحبة والحب؟ بين الحنان والإثارة الجنسية؟ بين الفانتازم والحقيقة؟ بين رغبة تنحصر في الفكر ورغبة تسكن الجسد؟

أهو الانجذاب نحو المحظور والمستحيل ما يؤجج رغبتنا فيه؟

أم هو جوع الإنسان لكل شيء؟ جوعه للحب، جوعه للمعرفة، جوعه للحياة؟».

كان دائماً يتأرجح بين الشيء وضده، تتضارب داخله أسمى العواطف وأرذلها، ما إن يجد ملاذاً في فكرة من الأفكار حتى تقتحمه الفكرة النقيض. مما جعل الملاك والشيطان يتضاربان في داخله باستمرار.

بعد اجتيازنا امتحان الباكالوريا سافر هو إلى مدينة الرباط لدراسة العلوم الإنسانية بينما سافرت أنا إلى فرنسا لدراسة الأدب الفرنسي.

أذكر بوضوح يوم سفره إلى الرباط لاستئناف دراسته الجامعية وأنا ألتقط له صورة تذكارية، أمام محطة القطار، مع أبيه وزوجة أبيه وأخته ربيعة.

قال لربيعة وهو يعانقها بحرارة:

«لا أحد في هذا الوجود يحبك مثلي».

أحسّت بصدره يضغط على صدرها حد إيلامها فتحررت من قبضته، قائلة:

«وأنا كذلك أحبك، رافقتك السلامة يا أخي».

خلف فراق ربيعة فراغاً مهولاً في حياة صلاح الذي لم يكن يخلف عطلة دراسية إلا وعاد لزيارتها.

أثناء عيد ميلادها السادس عشر، طلب صلاح من والده أن تكون هديته لربيعة جولة في الرباط. سوف يعرفها على معالم المدينة: صومعة حسان ووادي أبي رقراق، وضريح محمد الخامس.. فهي لم يسبق لها أن غادرت أزمور سوى صوب الجديدة لزيارة خالتها.

وافق والدهما على فكرة السفر التي تحمست لها ربيعة، على أن لا يتعدى غيابهما يومين. أكد صلاح لوالده بأن الطلبة الذين يتقاسمون معه الشقة قد رحلوا لزيارة أهاليهم، ووعده بأن يضعها بعينيه وألا يمكثا أكثر من يومين.

عادت ربيعة من الرباط بوجه شاحب جعل والدتها تنشغل على صحتها، قال صلاح مطمئناً إياها بأنهما قد أكلا في مطعم في وسط المدينة وربما تعرضت لتسمم، وعاد في اليوم نفسه إلى الرباط لأن دروساً تنتظر أن يستوعبها.

لكن أمها لاحظت أن هناك شيئاً قد تغير في ربيعة التي فقدت مع مرور الأيام حيويتها وبدأت تميل إلى العزلة.

بعد يوم من التيه بأزمور مررت بمحاذاة بيت صلاح. كانت آخر مرة ارتاده، يوم جاء خبر وفاته في أمريكا، وكنتُ قد جئتُ في زيارة قصيرة لأتفقد أحوال والدتي وربيعة وابنها.

نزل خبر موته في أمريكا كصاعقة، خاصة وأن ظروف الوفاة كانت غامضة. جعلت التأويلات تتناسل وتتشعب بقوة وسرعة فائقتين:

قال أحدهم بأنه كان يتعاطى المخدرات وأنه مات بجرعة زائدة. وقال آخر بأنه أصيب بمرض الإيدز الذي أودى بحياته. وقال ثالث بأن رصاصة طائشة قد أصابته، وقال قائل بأنه قد انتحر.

ماذا فعلتَ بنفسك يا صلاح؟

كنتُ أقرب الناس إليك وكنتُ أبعدهم من أن أتخيل حقيقة معاناتك.

صدقتَ حينما قلتَ:

«أكبر لغز في الحياة هو الإنسان».

صياح ديك يوقظني عند الفجر.

كان له وقع حنون على أذني، أعادني إلى فجر آخر:

كنت قد عدت من فرنسا لقضاء عطلة السنة الجديدة مع والدتي. سألت عن صديقي صلاح فلم أجده. في اليوم التالي بعد قدومي، نهضت على صياح ديك عند الفجر وخرجت لأستمتع بمنظر وادي أم الربيع قبل أن يطلع النهار. اتجهت صوب صخرة كان يعجبني الجلوس فوقها مع صلاح والإنصات إلى تأملات صديقي الفلسفية. تراءى لي عن بعد خيال يقف على الحافة يقترب ويبتعد ليقترب من جديد. لابد أنه شخص مخمور سيفقد توازنه ويسقط في النهر. هرولت تُجاهه وأمسكت به بقوة، وإذا بها ربيعة ترتعش وتبكي وتدفعني بكل قواها قائلة:

«لماذا جئت الآن؟ دعني وشأني».

ما الذي جاء بربيعة في هذا الوقت المظلم إلى حافة الهاوية؟

وما سبب هذا اليأس الذي يدفعها لأن تلقي بنفسها في النهر؟

سحبتها بعيداً وأنا أحاول أن أهدئ من روعها وكلي حيرة، وبعد جهد كبير نجحت في جعلها تبوح:

قالت بأنها لا تستحق العيش، وبأنها مذنبة، وبأنها حامل من شخص غرر بها.

حاولت إقناعها بأن بإمكاني التدخل وإرغام هذا الشخص على الزواج منها، فالدنيا ليست فوضى. وسألت إن كان صلاح يعلم؟ لكنها كانت تبكي وتردد: هذا مستحيل.. مستحيل.

أصررت على معرفة هذا المستحيل الذي يجعلها تخفي أمراً مصيرياً عن أخيها الذي يحبها والذي كان دائماً يحرسها ويعتني بها، وقلت لها إن كان الخجل هو السبب فسوف أخبره بنفسي ونعمل معاً على حل المشكلة.

وهنا أخبرتني ربيعة بتفاصيل ما حصل بينها وبين صلاح خلال الليلة التي قضياها معاً في مدينة الرباط.

ظللت مصعوقاً أمام هول ما سمعت. كيف يعقل أن يفعل صلاح بأخته هذا؟

كنت أعلم مدى حب صلاح لأخته وفخره بها وغيرته عليها، وهذا شيء طبيعي، لكنني لم أكن أتصور أن يصل افتتانه بها حد الهوس بجسدها وقد عبثت به غرائزه. لم أكن أتخيل إلى أي حد أصبح صديقي معذباً، وقد اختلطت عليه الأفكار والعواطف ونداءات الجسد.

لزمني وقت لأفك شفرة هذا اللغز وأربط بين أحداث كان من الممكن تأويلها على النحو الصحيح:

كان عذاب صلاح فكرياً وجسدياً وصورة ربيعة لا تفارقه أبداً. كثيراً ما حاول إقناع نفسه بأن هذا الذي يفكر فيه قد يسبب لها ألماً نفسياً، وكيف يتحمل إيلامها؟ ولكن ألم الرغبة أصبح أقوى منه.

قرر السفر إلى مدينة الرباط عسى الإقامة بعيداً عنها تهدئ من حدة هوسه بحبها، لكن العكس ما حصل، فقد أجج البعد رغبته التي أصبحت ألماً لا يطاق.

حاول معاشرة نساء كثيرات علّ ولعه المرضي بربيعة يخف قليلاً لكنها كانت تسكن خياله وهو في حضن أخريات. كان مجرد التفكير بها يولد في أحشائه مزيجاً من الرعب واللذة والألم والإحساس بالذنب.. وكل هذا يضعه في حالة من التهيج الجنسي لا تحتمل.

بعد صمت طال بيننا أجهشتْ ربيعة من جديد بالبكاء وجسدها يرجف وهي تتوسل إلي قائلة:

«أرأيت الآن بأنه مستحيل، لماذا جئت الآن؟

أرجوك ساعدني على الانتحار، إنه الحل الوحيد في مثل حالتي.

فحتى متى يمكنني إخفاء بطني؟

وكيف أبوح بفعل الشيطان؟

وهذا الجنين، كيف له أن يرى الدنيا، لا، لا يمكن؟»

أمسكتُ بذراعيها قائلاً بذاك الهدوء الذي يلي الصدمة:

- اهدئي من فضلك دعينا نفكر في حل لورطتك.

ظللنا جامدين وقد بدأ ضباب الفجر ينقشع من حولنا.

غمرني إحساس بأن الله قد سخرني لمساعدة هذه الفتاة المسكينة، وقد أدركت جسامة المسؤولية التي تلقى على عاتقي، فأنا الوحيد الذي يعلم بالسر وعلي أن أفعل شيئاً. لكن ماذا؟

وفجأة التفتُ نحوها قائلاً:

«اسمعيني جيداً، هناك حل واحد لإنقاذ هذا الجنين البريء. سوف أتزوجك على ورق طبعاً، حتى أمنحه اسمي، وأدعك تعيشين مع والدتي. سوف أتكفل به ما استطعت، كي يتم وضعه الله في طريقي. ستكونين أختاً لي.. أعني صديقة. لكن تعدينني ألا تفكري أبداً في القيام بحماقة مثل التي كنت تتأهبين لفعلها، وأعدك أن لا يعلم أحد بسرنا».

ارتمت على قدمي تحاول تقبيلهما لكنني أمسكت بذراعيها، وقلت:

«لا تركعي أرجوك، فأنت ضحية لا مذنبة، عودي إلى بيتك قبل أن ينتبه أحد إلى غيابك وسوف آتي لزيارتكم مع والدتي بعد الظهر».

هكذا تم زواجي بربيعة على ورق.

تركتها مع والدتي التي وجدت فيها أحسن مؤنس لوحدتها، وعدت لاستئناف دراستي.

فبعد وفاة والدي، وأنا في السنة الثانية من عمري، رفضت أمي، كما يليق بالأمهات الشريفات بأزمور في ذالك الحين، أن ترتبط برجل آخر ناذرة حياتها لوحيدها.

كنا قد ورثنا عن والدي أرضاً فلاحية تُدرُّ علينا مالاً يكفينا للعيش بكرامة وبيتاً يسترنا، مما جعلني مطمئناً على ربيعة ومن ببطنها بصحبة والدتي.

بعد ثمانية أشهر ولدت ربيعة قبل موعدها ابناً يحمل إعاقة ذهنية. أذكر بأنها لم تحزن بل قالت لي: «أحمد الله على إعاقته فلن يضطرني إلى الكذب عليه».

أما والدتي فقد أحبت الطاهر - وهو الاسم الذي اختارته له ربيعة - كما تحب الجدة حفيدها، بقلب امرأة مؤمنة تفرح بكل ما يأتي به الله، واعتنت به أكبر عناية.

لكنه كمعظم الأطفال الذين يحملون هذا النوع من الإعاقة، كان يعاني من تشوه في القلب أودى بحياته في سن الخامسة.

ظلت ربيعة مع والدتي التي كانت تعاني من مرض السكري وارتفاع الضغط، لتعتني بها، وكانت مثالاً للرقة والوفاء.

عندما تلقيت خبر وفاة والدتي، عدتُ إلى أزمور واستغرقت وقتاً لتصفية أمور إدارية..

كانت أول مرة يجمعنا البيت، ربيعة وأنا، لوحدنا.

وذات ليلة، ونحن جالسان أمام التلفاز بعد العشاء، لمستُ ذراعها دون قصد.

ارتبكتْ وكأن لمستي قد عبرت جسدها طولاً وعرضاً قبل أن تتمدد لتدثره بأكمله..

رفعتْ عينيها نحوي، وكانت نظرتها تقول بأن بإمكانها أن تموت لو أنا أخذتها بالأحضان.. أن تفنى لو أنا قبّلتها.

أحسستُ بانجراف عواطفها نحوي..

ومن الصعب على أي رجل طبيعي أن لا يهيم بامرأة مثلها.

لكنني ابتعدت عنها.. لن أعطيها أملاً خاطئاً.. فوجود شبح صلاح بيننا يمنع احتمال أي علاقة.

وليلةَ حاولتْ أن تقترب مني أكثر، مقتحمة غرفتي بقميص نوم شفاف، كانت آخر ليلة لي في البيت.

لملمتُ أغراضي وهي تبكي في صمت. قبل أن تنطق:

- أشكرك على كل ما فعلت من أجلي، إنك الشهامة

مجسدة في إنسان، سأظل أحبك كملاك بعثه الله إلي. معك حق.. لا يمكن أن تكون علاقتي بك علاقة امرأة برجل.. لكن لي عندك طلب أخير.

قلت بتأثر:

- أنا من يعتذر.. أنت أنثى رائعة، يتمناها كل رجل، لكن الظروف حالت بين أن أعتبرك أكثر من صديقة أعزها وأحبها.. أطلبي ما شئت.

قالت:

- أريدك أن تطلقني قبل رحيلك.. فما عاد ما يمنع عودتي إلى بيت والدي.. وآن الأوان أن تستعيد حريتك.. محظوظة من ستكون من نصيبك.

طلقتها، وعانقتها وبكينا طويلاً قبل أن نفترق لآخر مرة.

وعدت قبل انتهاء عطلتي إلى لندن التي كنت قد استقر بي المقام فيها.

علمت بعد مدة بأنها قد تزوجت من ابن عم لها وتعيش معه في الدار البيضاء.

بينما تزوجت أنا بالصحافة وكتابة سير الآخرين دون أن أحسب حساباً للعمر الذي يجري.

ويوم ظننت أن الحب شيء غير موجود إلا في الأدب، دق بابي في حلة ملاك اسمه إسلان.

آه كم اشتقت إليها!

لـم تـفـضـل سـوى أيام مـعـدودة لأنـهـي بيـع الـبيـت والأرض ويجمعنا أغادير، حيث تحقق هي حلمها في فتح مطعم خاص وأنا حلمي في العيش معها.

كتبت رسالة هاتفية وبعثتها:

«شبّ الحنين، فارسمي غيمة واستلق على قطنها ودع الريح تحملك إليّ.. الظهيرة هنا تعد بالمطر.. أحبك حدّ الألم».

غداً موعدي مع الفرنسي الذي سيشتري البيت والأرض الفلاحية.

مرّت الأمور بسلاسة كما تمنيت. كنت قد كلفت مكتباً عقارياً من لندن أن يبحث عن مشتر، فلم يجد صعوبة في العثور على فرنسي من الذين يشترون بيوتاً قديمة في مدن عريقة.

لم يكن بيتنا بالفسيح، لكن شكله التقليدي وموقعه وسط المدينة القديمة، وكذا إطلالته على وادي أم الربيع، رفعا من قيمته إذ يعتبر تحفة عتيقة.

لي رغبة في الاستمتاع بأزمور قبل مغادرتها..

خرجت في الظهيرة أجوب الأزقة الضيقة للمدينة القديمة. وما هي إلى لحظات، حتى خلت من حولي وانفض سكانها، لم أفهم ما الأمر، وإذا بأصوات تهتف من داخل مقهى. جلبني الفضول لأجد جمعاً غفيراً يتابع مباراة في كرة القدم.

تقدم نحوي النادل بعين تاركاً الأخرى على الشاشة، قائلاً:

- لا بأس، عليك أن تتناول مشروبك واقفاً. . فلا مكان شاغراً. . مباراة كرة القدم تُحب الجمهور.

رددت بلسان من لم تستهوه يوماً كرة القدم:

- لقد صنعها الجمهور.

أمسكت بفنجان قهوتي وأخذت أشاهد بكثير من الحياد فريقين أجنبيين كلاهما من إسبانيا. وأتساءل كيف استطاعت كرة صغيرة أن تجمع حولها العالم.

يأخذ الملعب حجم الكرة الأرضية، يجري فيها الفرد مع الجماعة ضد الجماعة. يتقاذفون عنفهم وانكساراتهم وفرحهم ويقذفون صوب شبكة بحماس الأبطال.

كل من في المقهى يتابع المباراة وأنا أتفرج في المتفرجين وأستغرب:

آمالهم مشدودة لكرة صغيرة تلعب بالجميع وتنتصر لنفسها فيما يأخذ الحدث منحى مصيرياً.

غادرت المقهى قبل نهاية المباراة، وأنا أفكر باستنكار في ما قال لي النادل، على أن بعض المغاربة يسافرون إلى برشلونة خلال عطلة نهاية الأسبوع، لا لأمر سوى مشاهدة مباراة كرة القدم، مع أن المباراة نفسها تنقل على قنوات تلفزيونية عديدة. . يشترون تذكرة طائرة من المغرب إلى إسبانيا لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في الملاعب.

كما لا أكاد أستوعب، بل وأجد من غير اللائق الأجور الخيالية التي يتقاضاها لاعبو كرة القدم.

الأجدر بي أن أستمتع بخلاء الشوارع.

وأنا أتجه نحو ضريح الولي الصالح مولاي بوشعيب الرداد، دغدغت أذني أغنية لا أعرفها بصوت إخالني أعرفه، رجتني طرباً واستوقفتني عند بائع الأشرطة، تقول كلماتها:

سَهْلاً وَهْلاً بِيكْ يا النَّحْلة يا الصَّايْلة يا الجَايْلة صَلْتِ عَلْ لَطْيارْ

غَنِّي بِينْ النَّهْرْ والزْهَرْ وخْدُودْ الزِّينْ لَعْيُونْ النَّحَّارَة. . .

نَغْمَتْ التَّحْنانْ بِينْ البُسْتانْ أَيَا شَامَة . . . ويا شامة. .

سألت لمن تكون هذه الأغنية. «إنها أغنية النحلة شامة لناس الغيوان» قال البائع.

كيف لا أعرفها وأنا من يحفظ كل أغاني ناس الغيوان وينشدها؟ فأنا من جيل ترعرع على نغمات الغيوان.

اشتريتها وعدت إلى البيت. شغلتها وتمددت فوق سريري أنصت بتأثر إلى كلماتها.

أعادتني إلى صديقي يوسف الفنان التشكيلي الذي لقبناه بـ «مجنون شامة»، وإلى «حلقة» يوم الأحد في بيت الدكتور رشيد في باريس.

صور مشتتة تزدحم بذهني. . أحاول لمها بمتعة الذكرى:

كنا أربعة طلبة مغاربة نلتئم يوم الأحد في بيت رشيد الذي

كان آنذاك طبيباً متدرباً. حميد طالب تجارة، يوسف طالب فنون جميلة وأنا طالب أدب.

وقد أطلقنا على هذا اللقاء «الحلقة» إحالة على حلقة جامع الفناء. وهو عبارة عن لقاء كسكس ونبيذ ونميمة.

كان يوسف الفنان من يُعد لنا الكسكس للغداء الذي كان يستمر لغاية ما بعد منتصف الليل.

ما إن يبدأ النبيذ في الإعلان عن نفسه في رؤوسنا حتى نفتتح «الحلقة»، وكانت كل حكاياتنا تخص النساء اللواتي تربطنا بهن علاقة جنسية أو علاقة حب.

يقف من عليه الدور أمامنا ونحن جلوس، كما يقف ممثل على خشبة مسرح، ليحكي بطريقة مشوقة تفاصيل أحداث إحدى مغامراته الجنسية ونحن نضحك ونعلق على ما يقال.

كنا كالأطفال لا نضجر من سماع الحكاية نفسها..

ولفرط ما تكررت الحكايات حفظناها عن ظهر قلب.

شيء غريب هي الذاكرة.. أغنية عابرة تكفي لفتح صنابيرها فنغرق في سيل من مشاهد وانفعالات كأننا نعيشها من جديد.

عندما بدأت كتابة هذه الرواية لم أكن أنوي الكتابة عن ذاتي، إنما عنها هي فقط.

أكتشف الآن، سبب خوفي من العلاقة المباشرة بالكتابة، واختفاء الكاتب خلف «الشبح». ذاك لأنه كما قال كونديرا:

«الروائي يهدم بيت حياته ليبني بحجارته بيتاً آخر.. بيت روايته».

ها أنا دون نية مسبقة، أهدم بيت حياتي على ورق لتقرأوه..

أكان لزاماً عليَّ أن أهدمه حقيقة لأبلغ الخيال؟

وهل السبيل إلى الخيال (كما إلى الجنة)، يمر بالضرورة عبر الحقيقة (كما عبر الجحيم)؟

ربما!

أكاد أرى رشيد، أو «الدكتور» كما كنا نلقبه، بعد كل هذه السنين، يفتتح «الحلقة» ليحدثنا عن علاقته بكلود، وهي سيدة فرنسية تعرّف إليها في المستشفى الجامعي خلال تدريبه في قسم الجراحة. كانت محامية مختصة في قضايا الأسرة والطلاق، جاءت لزيارة زبون سجين خضع لعملية استئصال الزائدة. دعته لشرب كأس ببيتها لتشكره على ما قام به إزاء زبونها بكل لطف وتحضر.

يقف أمامنا، بشخصيته القوية وملامحه التي تجمع بين الصرامة والخجل، كممثل مقتدر، ويبدأ في سرد قصته معها:

«وصلتُ منزلها وكان الليل قد بدأ يسدل ستائره.. فتحتْ الباب وبيدها كأس من الشمبانيا قائلة:

- أهلاً دكتور، يسعدني حضورك.

قلت بأدب:

- ويسعدني أيضاً

كانت تبدو في حالة ضعف تستفز شهامة المغربي فيّ.

سألتُ:

-أتعيشين لوحدك؟

أجابت في غموض:

- تقريباً.

سألت بإلحاح:

- بمعنى؟

أوضحت:

- زوجي يشتغل في المستشفى الجامعي لمونبولييه ويأتي نهاية الأسبوع فقط.

- ما هي طبيعة عمل زوجك؟

طبعاً، لم أكن أهتم لمعرفة مهنة زوجها، لكنني سألت فقط من أجل تجاذب أطراف الحديث.

- إنه جراح دماغ».

«غاوية أطباء» يعلق حميد.

يستأنف رشيد:

«سألتها:

- لماذا لا تصطحبينه إلى هناك؟

ردت باختصار:

- لأن طبيعة عملي تحتم عليَّ البقاء هنا. . لي مكتبي الخاص هنا في باريس.

شربنا كأساً وملأتْ لنا أخرى وقد كنت في حالة تعب بعد نهاية يوم شاق فقلت في نفسي لا بأس من أن آخذ قسطاً من الراحة.

سألَتْ:

- من أي مدن المغرب أنت؟

- من مراكش.

- أموت في مراكش وفي ناسها. . حديقة ماجوريل، ساحة جامع الفناء، ممر النخيل. . . آه على سحر مراكش.

- حقاً؟

- أجل، لقد زرتها مرات عديدة وأمنيتي أن أقضي نهاية حياتي هناك».

حميد يعلق من جديد: «ستكون نهايتها على يدك».

نضحك جميعنا، ويواصل رشيد:

«شغّلتْ شريطاً لموسيقى رومانسية هادئة، وجلست بجانبي. . وضعت ساقاً على أخرى وإذا بجواربها المنخفضة السوداء تكشف عن بشرة بيضاء ناصعة.

أبدت اهتماماً كبيراً بوضعي في فرنسا، سألتني إن كنت متزوجاً قبل أن تسألني عن علاقاتي بالنساء. . وهي تمرر يدها

في شعرها القصير وقد أضفت الشمبانيا على عينيها الخضراوتين بريقاً بلون الغواية.

قلت:

- لديك عيون رائعة.

ابتسمت بغنج وردت:

- ولك ثغر أروع.

وهي تقرب وجهها من وجهي وتغمض عينيها».

يقفز يوسف معلقاً برومانسيته الخرافية: «أجنُّ بهذا العطاء.. فأروع ما في القبلة هاته اللحظة بالذات: شفاه تقترب من أخرى، لا تدري بعد مآلها، لحظة انتظار وشوق وترقب، لحظة تمتزج فيها الأنفاس فيستنشق الواحد الآخر قبل أن يتذوقه».

يستأنف رشيد:

«وتذوقتها وكانت شهية ولذيذة..

غادرتُ بيتها والساعة تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل».

يتوقف رشيد ليشرب من كأسه، ونصرخ نحن: «إيه.. أتمم. وبعد؟»

يسترسل هو:

«عدت إليها مرة ثانية، ومارسنا الجنس.. وفي المرة الثالثة، فاجأتني بسؤال خبيث:

- ألا يحدث أن تدفع مالاً مقابل الجنس؟
- نادراً.
- وهل يزعجك هذا؟
- لا، لكن إذا كان من الممكن ممارسة الجنس مجاناً فلماذا دفع ثمن بالمقابل؟
- لأنه يمنحك إحساساً لا تمنحك إياه المجانية.
- مثل ماذا؟
- جرب وأنت تحس.

دفعتُ لها ما طلبت، ولم يكن بالثمن البخس، وأنا أحاول أن أفهم حاجتها إلى المال هي المحامية الناجحة، زوجة الجراح، صاحبة البيت الذي ينضح ثراء».

«إيه وبماذا أحسست؟» يسأل يوسف.

يرد رشيد:

«أحسست بزهو كبير وبتضخم في الأنا وبأنني أنا المهيمن.. ها هي محامية بنَتْ ثروتها على أنقاض بيوت هدمها الطلاق، أضاجعها مقابل مال.

من يومها تغيرت طريقة ممارستنا للجنس: أحضر لأجدها ترتدي ملابس كاشفة على طريقة مومسات شارع بيغال الباريسي. وعلى وجهها ماكياج صارخ.

كان يعجبها أن تلعب دور المومس وتطلب مني أن أدفع الثمن مسبقاً.

وكانت اللعبة تزيد من تهيجي».

يقاطعه حميد: «طلبت منك مالاً لأنها عرفت أنك بخيل».
أحتج أنا: «أصمت يا أخي دعه يكمل». يسترسل رشيد:

«كان يروق لها أحياناً أن تدعوني إلى مكتبها الفخم وتطلب من السكرتيرة عدم إزعاجنا، ونمارس الجنس على أريكة بغرفة المكتب، يفصلنا باب من الزجاج السميك عن فضول السكرتيرة.

وكان أغرب ما طلبت مني هو أن أحضر إلى إحدى مرافعاتها بالمحكمة.

ما إن انتهت الجلسة حتى أشارت علي بأن أتبعها في ممر طويل يفضي إلى مرحاض للنساء. سحبتني داخل المرحاض وفتحت بذلة المحامية لتكشف عن لباس كله من الجلد الأسود: تنورة قصيرة جداً وحذاء طويل يصل ركبتيها.

مارسنا الجنس بهمجية وطلبت حقها نقداً قبل أن ترتدي بذلتها الرسمية.

كانت لكلود شخصيتان واحدة يعرفها المجتمع ويحترمها، وأخرى لا أعرفها إلا أنا ومراحيض محكمة باريس».

نضحك نحن بهستيرية، ويقول حميد متوجهاً نحوي: أكتب يا صحافي:

«شهدت مراحيض محكمة باريس جريمة اغتصاب طبيب مغربي من لدن محامية مختصة في قضايا الأسرة».

«دعوه يكمل»، يصرخ يوسف.

يواصل رشيد:

«صدقوني يا أصدقاء السوء لو قلت لكم بأن مغامرتي مع كلود، وإن كانت تضخ في أناي شيئاً من الاعتزاز بالنفس، فإنها أصبحت تكلفني الكثير. صرت مدمناً عليها أزورها على الأقل ثلاث مرات في الأسبوع، وثمنها يرتفع كلما أضافت شيئاً جديداً لطقوس اللعبة.

قررتُ إنهاء علاقتي بها يوم اقترحت أن تقدمني لزوجها.

كان هذا بمثابة الضوء الأحمر. . فهذا النوع من البشر الذي يدمن التغيير والتنويع في الجنس، يدفع به كل مرة أبعد فأبعد حد الخسارة أو الضياع، وإن أنا خسرت مالاً كثيراً فلم أكن على استعداد لأن أخسر نفسي، وقد ترسخ لدي إيمان بأن أروع العشيقات أكثرهن ضرراً».

نردد جميعنا بعده ونحن نصفق بحرارة:

«أروع العشيقات أكثرهن ضرراً».

جرت العادة، بين حكاية وأخرى أن تكون لنا وصلة موسيقية، تماماً كما في «الحلقة»، وبما أنه لم تكن لي قصة تستحق أن تحكى - بحكم أنني الوحيد الذي كان متزوجاً وله طفل- مستحقاً لقب «مُولَ اوْلِيدَاتْ». فقد كانت مهمتي الوصلات الموسيقية وكنت أحسن الغناء خاصة أغاني ناس الغيوان.

يقول رشيد الذي كان يقوم بدور مسير «الحلقة»:

- فؤاد من فضلك أغنية الصينية.

أصدح أنا:

وَاعَرْ بْلاهْ ما سَاهَلْ حُبْ الكَاسْ
آه يا غيَّاتْ ما نْسَاكْ الخاطرْ
واعرْ بْلاهْ ما ساهَلْ عَشْقْ الناسْ
آه يا غَيّاتْ حْرَامْ ينْسَاكْ الخَاطَرْ. . . .

ويأتي دور حميد الذي كنا نلقبه «مُولْ لَبِّيسْري»، ليس فقط لأنه أمازيغي من تارودانت، ولكن لأنه فعلاً قد اشتغل في دكان بقالة في باريس وله حكاية غريبة مع مشغلته.

حميد من وسط فقير وكان عليه في غياب منحة أن يشتغل لينفق على دراسته.

يقف حميد أمامنا بوسامته وروحه المرحة، يعجبه أن يبدأ بمقدمة طويلة نعرفها، ليستفز أعصابنا:

«كلكم تعرفون البقال الحاج اليازيد بالحي اللاتيني.. الذي يشفق على الطلبة المغاربة ويتعامل معهم بالتقسيط. سألته يوماً إن كان يعرف أحداً يحتاج شغالاً، فإذا به وبكثير من اللطف يقول لي: لا تنشغل كثيراً عن دراستك يا ولدي.

أجبت بأنه ليس لدي اختيار آخر. وإذا به يقول لي بأن زوجته التي تملك دكان بقالة في فيرساي تحتاج إلى من يساعدها، لكنه يخاف عليَّ من إهمال دراستي. قلت موافق فطبيعة دراستي لا تحتاج مني أن أرتاد الجامعة يومياً.

مدني بعنوان وقال تعال غداً الأحد وسوف أعرفك إلى زوجتي.

وصلت المكان المحدد وكان الدكان أسفل عمارة بثلاثة طوابق، يقطن الحاج اليازيد وأسرته في الطابق الأول.

قدم لي زوجته قائلاً: «هذه لالّة غيثة زوجتي»، وكان من الممكن أن يقول «ابنتي»، نظراً إلى فارق السن الواضح بينهما.

فتحت لالّة غيثة الدكان الذي كانت تقفله يوم الأحد، وهي تقول:

- حدثني عنك الحاج بالأمس، قال بأنك طالب علم، مرحباً بك في بيتك ومكان عملك.

قلت «شكراً مدام»، وأنا لا أكاد أصدق هذا الحظ السعيد الذي ألقت به يد القدر في طريقي.

- أفضل أن تناديني بلالّة غيثة مثل الجميع.

أخذت تجول بي داخل المحل، وأنا أتبعها لننتهي إلى فضاء خلف السلع المتراصة بين المخزن من جهة، وغرفة التبريد من جهة أخرى، به سرير ومنضدة وركن للطبخ بمحاذاة باب صغير يفضي إلى مرحاض.

- هذا فضاؤك الخاص.

أحسست بفرحة من نال جائزة بعد عناء، وأنا أردد في نفسي «فضاء خاص بي»، لم يكن لي قط فضاء خاص حتى في بيتنا في تارودانت.

أصبحت في غضون أسابيع معدودة، المسؤول الوحيد عن المحل فيما تفرغت هي لنفسها ولأبنائها».

يقاطعه يوسف: كفاك مقدمات يا أخي ادخل في الموضوع.

يتجاهله حميد ويستأنف ممعناً في التفاصيل ليغيظه:

«كانت حياة الحاج اليازيد هادئة، مهاجر متزوج من فرنسية وله ولد مراهق، إلى أن صادف يوماً في بيت أحد أصدقائه خلال

وليمة عشاء، وهو بصحبة زوجته، شابة تدعى غيثة، تعيش وتعمل عند سيدة جزائرية تملك صالون حلاقة في حي في باربيس. غيثة مهاجرة سرية قادمة من أسرة فقيرة في مدينة آسفي، تقاذفتها المصائب ولم تفلح في تسوية وضعها القانوني. رأت فيه حلاً لمشاكلها: رجل يكبرها سناً، متزوج من فرنسية، ما يؤكد لديها حصوله على الجنسية، وعلاقته بزوجته تبدو من نوع العشرة الطيبة ليس إلا. فكان أن اقتحمت خجله وجددت شبقه.

كيف لا تقرن حياتك بمن جدد شبقك؟»

«أكيد»، يعلق يوسف.

ويضيف رشيد: «اختصر يا لعين».

«بْلَمْهَلْ كَيْتْكَالْ بُودَنْجَالْ»، يرد حميد قبل أن يواصل:

«تزوجت غيثة بالحاج اليازيد بعد أن انفصل عن زوجته. فتح لها دكان بقالة، قبل أن يفتح لنفسه متجراً بعد أن أحيل على التقاعد.

أنجبت بنتاً وولدين، وأصبحت لالّة غيثة صاحبة المال والأمر والنهي».

أقاطعه أنا منشداً لازمة أغنية غيثة من طرب الملحين:

«قولوا للالّة غيثة مُولاتي جُودْ بَوْصَالَكْ عَلْ لَغْشِيقْ يَا أمْ الغِيثْ... قولوا للالّة غيثة مُولاتي».

ينتفض هو قائلاً:

«اصبروا ها قد وصلت قلب القصيد»، ثم يواصل:

«كان قد مر على تشغيلي شهر ونصف تقريباً، حين ذات صباح، بعد أن غادر الحاج اليازيد إلى محله الخاص والأطفال إلى المدرسة، نزلت لالّة غيثة الدكان في الرّوب.

أقفلتْ الباب الزجاجي بعد أن علّقت يافطة عليها جملة: «سأعود حالاً»، وسحبتني من يدي وأنا كلي تساؤل وقلق، إلى الركن الخلفي للدكان، حيث توجد غرفتي. نزعت عنها الرّوب أمام خجلي المميت، وبدأت في تقبيلي موشوشة:

- لا تكن خجولاً هكذا، أعرف أنك تعلم وقْعَ وسامتك علي.

هل كنت أعلم وقع وسامتي عليها؟ كنت قد لاحظت نظراتها إلي واحتكاكها بي داخل الدكان كلما مرت بمحاذاتي. لكنني، والحق يقال، لم أكن أتصور أن الأمور يمكن أن تصل إلى هذا الحد، خاصة وأنني مدين لزوجها، لكنني الآن تحت رحمتها هي ولا أنكر أنها امرأة في أوج نضجها وشهية وأنا شاب تعبث الهورمونات بأعضائه.

لا أعلم كيف نسيت فجأة زوجها وأصلها ومن تكون واندمجت في الجو بكل أحاسيسي وفحولتي. ضاجعتها وقد كنت عطشاناً للحنان الأنثوي».

.

«مسكيييين» يقول يوسف.

«عندما ارتوينا قبلتني، قبلات مكثفة وسريعة على وجهي بأكمله قائلة بالفرنسية: «إنك أروع فرس عرفته في حياتي»، ثم ارتدت الرّوب وسبقتني إلى الباب. فتحَته وغيرتْ اليافطة بأخرى: «مفتوح»، وانصرفَتْ لأستأنف عملي وأنفاسي لم تهدأ.

هكذا، وبسهولة تكاد لا تصدق، أصبحت لالّة غيثة عشيقتي التي تزورني متى أرادت. فأحياناً تأتيني في الصباح، وأحياناً أخرى ساعة الغذاء، ومرة قبل إغلاق الدكان بقليل، ومرات في كل هذه الأوقات. «لا أشبع منك» تردد على مسامعي، «أحييت حواسي» أو «أرنبي البربري الصغير». وأنا المراهق الذي يكتشف وجوهاً أخرى للجنس، أحسست كأنني أكتب فصلاً جديداً من رواية مدام بوفاري.

لم أكن أغادر المحل إلا إلى الجامعة مرة في الأسبوع، فقد كان بيتي ومكان عملي وعالمي الضيق الذي عملت على أن يبقى كذلك، حتى يتسنى لي تحقيق هدفي الأساس: إتمام دراستي.

كنت أخضع لدكتاتورية شبق لالّة غيثة مقتصراً على رؤية الجانب الإيجابي، فأجد تكافؤاً في تناقضاتنا، أليست الحاجة إلى الآخر أساس التكافؤ؟»

«إيه طبعاً.. برر يا خائن»، يقول يوسف.

يتجاهله حميد ويسترسل:

«كانت تحتاجني كعشيق يعيد اكتشاف قاراتها المنسية ويعيد الحياة لأحاسيسها، وتحتاجني كشغال تعتمد عليه في كل صغيرة

وكبيرة، وأحياناً كصديق رغم أن الصداقة لم تكن يوماً تطبع علاقتنا.

وكنت أحتاجها كمشغلة تضمن لي المسكن والمأمن وتمكنني من تحسين وضعيتي الاجتماعية وإتمام دراستي، وكنت أحتاجها كامرأة أفجر معها طاقتي الجنسية وكانت عشيقة بارعة.

لكنني بقدر ما كنت أشتهي لالّة غيثة، كانت تخيفني بعض سلوكياتها الجنسية، خاصة وأنني قد بدأت أجد فيها متعة مضاعفة».

«إيه.. وضّح يَا مُولْ لَبِّيسْري» يقول رشيد.

يستأنف هو:

«كانت تحب المخاطرة، ويعجبها أن تمارس معي الجنس وزوجها غير بعيد عنا، بالخصوص عندما يكونان قد تشاجرا للتّو، ساعتها تمارس الجنس بوحشية تصبح بعدها في أتم الوداعة والصفاء. كان يحدث أن تصحبني معها إلى متجر زوجها لجلب ما يفتقر إليه دكانها من بضائع، فتسحبني إلى المخزن خلف المتجر لنختار البضاعة بينما يكون زوجها وراء النقدية. تبدأ في تقبيلي بلهفة وترفع فستانها وتستلقي على الأرض، أرتمي أنا فوقها وأنا أرتعش من الخوف والرغبة.

لحظات بقدر ما كانت خاطفة كانت حادة، تعطيك الإحساس بأنك قد نجوت بعد قفزة مميتة في الهواء.

كما كان يعجبها أن تمارس الجنس على فراش الزوجية وهي

تتكلم مع زوجها على الهاتف. لم أكن أفهم كيف يمكنها أن تخفي انفعالها وهي تتحدث معه وكأن شيئاً لم يكن. كثيراً ما كانت تطلب منه أن ينتظر على الخط، لسبب تبتكره في حينه، وتضع السماعة جانباً وتفتح فخذيها فألجها وأنا كاتم لأنفاسي. ما إن تصل إلى الذروة حتى ترفع السماعة من جديد، معتذرة عن التأخير، وتنهي المكالمة بسرعة تدخل بعدها في نوبة ضحك هستيرية مقلقة».

يعقب رشيد: «اللئيمة لم تكن تكتفي بخيانته، كانت بحاجة إلى جعله شاهداً بطريقة أو بأخرى على خيانتها له.. يهيجها التدحرج بين السرية والعلن».

يضيف حميد:

«الحاج اليازيد رجل مسالم يفنى في حب ذريته، لم ألمس فيه ما يبرر التصرف الانتقامي الذي يصدر عن زوجته. يبدو أنها تنتقم من العالم برمته في شخص زوجها أو ربما هناك سر في حياتها لا تعلمه إلا هي. كانت أحياناً تبدو طيبة وكريمة أكثر من اللازم، وأحياناً أخرى أجدها شريرة قاسية. وبقدر ما كنت أنجذب إلى شخصيتها القوية كنت أهابها.

استمرت الحال على هذا الشأن سنة ونصف. ثم تعرفت إلى فتاة فرنسية طالبة في الجامعة، وبسبب سذاجتي بحت للالّة غيثة بعلاقتي مع الفرنسية التي ترغب في الزواج مني، وإذا بها تعرض علي عرضاً جنونياً: أن أنتظر قليلاً وسوف تزوجني بابنتها سارة

حالما تصل السن القانوني وتكتب دكانها باسمي ونعيش جميعنا أسرة واحدة. . تصوروا، كان عمر سارة حينذاك تسع سنوات.

اتضح لي إلى أي مدى هي مجنونة ومستعدة لفعل أي شيء حتى لا تخسرني.

انسحبت في هدوء دون تفسير أو حتى اعتذار من زوجها».

يتوقف حميد وقد بدت لمحة الندم على وجهه فقد كان يعز الحاج اليازيد مع ذلك.

أصدح أنا ويتبعني الجميع:

فين غادي بيا خويا فين غادي بيا
دقة تابعة دقة شكون يَحَدْ البَاسْ
لا تْلومُونا في الغُرْبَة يا هَادْ النَّاسْ. . .

كثيراً ما كنا نطلب من حميد أن يحكي لنا حكاية «خالتي خدوج»، وهي أول عشيقة له في تارودانت، وقد كان عمره حينذاك لا يتعدى الخامسة عشر. لم نكن نحتاج إلى إلحاح فقد كان دائماً على استعداد لسرد حكاياته، وكان اختصاصه هو وسط المهاجرين المغاربة من أصل أمازيغي.

يقف أمامنا بقامته الفارعة وابتسامته التي لا تفارق محياه، ويبدأ:

«كنت قد اعتدت مراجعة دروسي في بيت صديق لي يدعى إبراهيم، وهو يعيش مع أمه وأخته الرضيعة. والده عامل مهاجر في هولندا يأتي مرة كل سنة أو سنتين. كانت تعجبني المراجعة مع إبراهيم لطابع الهدوء الذي كان يعم البيت، وكذلك لعناية والدته بنا، فقد كانت مثال المرأة «الحادكة». تجهز لنا الشاي و«المسمن» وتدللنا.

ومرة وأنا أقضي الليل في بيت إبراهيم أيقظتني رغبة في

التبول عند الفجر، وكان المرحاض في الطابق السفلي بينما غرفة صديقي في الطابق الأول.

وأنا أتحسس خطاي في الظلام وجدتني أنفاً لأنف أمام خالتي خدوج، والدة إبراهيم، التي خرجت لتوها من غرفتها.

- سألتني مبتسمة ماذا تفعل هنا؟

قلت موشوشاً:

- معذرة خالتي إن أزعجتك. . أقصد المرحاض».

يقاطعه يوسف الذي ظهرت عليه علامات السكر: «من صغرك وأنت «بوّال»».

يتابع حميد متجاهلاً ما قاله يوسف:

«وأنا أحاول أن أغير وجهتي، أحسست بيدها تقبض على عضوي المنتصب كعادته في أول الصباح، قائلة في شبه توبيخ كمن ضبطك في وضعية مشينة:

- وعمّ يبحث هذا العفريت؟

شهقت متمتماً، وقد فاجأتني بتصرفها هذا:

- لا شيء خالتي لا شيء. .

سحبتني من يدي بشدة داخل غرفتها دون أن تترك لي مجالاً للسؤال أو التساؤل. نزعت ثيابي ثم ثيابها وأنفاسها لاهثة ثم طلبت مني أن أطبق قبلات خفيفة على نهديها، ثم أسفل بطنها وهي تشجعني بقول:

- واصل. . واصل. . أنت بارع يا شيطان».

نردد نحن محاولين تقليد خدوج: واصل. . واصل. . واصل.

يتمم هو:

«واصلتُ أنا. . ثم سحبتني فوقها وامتطيتها بثقة خرافية.

لا أعلم كيف استطعت أن أمحو من ذهني ساعتها أنها خالتي خدوج أم صديقي إبراهيم. انتشينا معاً وظلت ساجنة جسدي بين فخذيها. فجأة، كما لو استيقظت من حلم، تذكرت بأن إبراهيم في الغرفة فوقنا وبإمكانه أن يأتي في أي حين. قلت في اعتذار محاولاً تحريري من قبضة فخذيها:

- قد ينزل إبراهيم. . و. .

- ولو. . لن يجرؤ على دخول غرفتي. . سيعتقد فقط بأنك قد غادرت البيت.

وفعلاً قمت وغادرت البيت وأذان الفجر يدوي في الفضاء.

لم تكن المرة الوحيدة التي زرت فيها غرفة خالتي خدوج. لقد أصبحت مهووساً بجسدها الفاتن المكتنز، وبدأت أتردد عليها خلسة ليلاً أو عند الصباح الباكر. كانت تمدني بنقود وأحياناً بهدايا من التي يبعث بها زوجها من هولندا مثل الصابون والشامبوان أو العطر».

يقول رشيد ضاحكاً: «صابون وشامبوان وعطر.. لا بد أنك كنت تأتيها متسخاً»

يواصل حميد:

«صدقوني يا ملاعين لو قلت لكم إنه بقدر ما كانت تجربتي الأولى في بيت الدعارة فاشلة أحببت الجنس مع خالتي خدوج. كان يعجبني البقاء بين أحضانها بعد الجنس، حيث أمتلئ حناناً لم يكن ضمن عطاءات والدتي التي لم أذكر يوماً أنها ضمتني إلى صدرها أو قبلتني، بل لم أذكر أنني قد نظرت في عينيها حتى، بحيث لا أعرف لونهما. كنت دائماً مطأطأ الرأس أمامها كما يقتضي الحياء في تارودانت.

يقول يوسف: «يبدو أن العديد من الأمازيغ يتمتعون بشبق مبكر، هل هذا صحيح؟»

يرد حميد بفخر:

«هذا صحيح، كنا نقف طابوراً في بيت الدعارة، لأن فتاة في السادسة عشر من عمرها جاءت من الدار البيضاء، مثلاً، فلا بد من تذوق سلعة «كازا»».

يضيف رشيد: «وضعية خالتك خدوج ولّدتها الهجرة».

يؤكّد حميد:

«كنت أعتقد أن تجربتي مع خالتي خدوج شيء استثنائي، قبل أن أعرف بأن هناك نساء أخريات في الوضعية نفسها، أعني أزواجاً في الخارج يقومون بواجب الزوجية مرة في السنة أو السنتين ليدعنهن يتخبطن في حمل وولادة وأطفال. نساء في عز شبابهن وقوة طاقتهن الجنسية يحاولن إيجاد مخرج سري من ورطتهن. وبما أن الخروج مراقب من طرف الجيران والحماة و.. وعيني على عينك، تبقى الفرص الثمينة هي حين يأتي شاب إلى البيت. وطبعاً لا يمكن أن يكون إلا من الأقرباء (ابن عم، ابن خال، صهر، ..) أو صديقاً للأبناء».

يسأل رشيد: «أنت من عاشر المهاجرين قل لنا.. ماذا يفعل الأزواج هنا؟»

يجيب حميد:

«عندما جئت فرنسا أول مرة سكنت في غرفة أتقاسمها مع سبعة مهاجرين مغاربة كلهم من أصل أمازيغي.

كانت الغرفة لا تتعدى أربعين متراً مربعاً، بها أسرّة متراصة على طول الغرفة وارتفاعها، كل منا يكتري فراشه. نتقاسم ثمن العشاء أما الفطور والغداء فكل واحد يتدبر أمره بنفسه.

لم أكن أتصور حياة المهاجرين بهذا التقشف، هم الذين يأتون إلى المغرب بسيارات فخمة مثقلة بالهدايا، تجعلنا نتوهم بأنهم يعيشون في فرنسا عيشة ميسورة، بل باذخة.

كانت حياة جيراني تقتصر على العمل المجهد طوال النهار

والنوم ليلاً وأكل القليل، الشيء الذي يمكنهم من إرسال بعض المال إلى ذويهم وتوفير الباقي. لم أرهم يوماً يفعلون شيئاً لأجل المتعة قط، باستثناء ما يسمونه بـ«الوقاية» وهي كالآتي:

مرة في الشهر، كنا نستقبل امرأة من أصل جزائري تدعى حنان (اسم على مسمّى)، يضاجعها كل منا مقابل بضع فرنكات، فيما ينتظر الآخرون دورهم أمام الباب. نسيت أن أوضح بأنني كنت أصغرهم سناً، فكلهم أرباب عائلات، وبعضهم من حجاج بيت الله الحرام. وهذه، في اعتبارهم، مجرد عملية تقيهم من بعض الأمراض العضوية والنفسية.

فهمت ساعتها، بأن الكل يحتاج إلى «وقاية»، ولكل وقايته الخاصة سواء كان داخل بلده أو خارجه».

يقول رشيد مسير «الحلقة»: أحسنت «يا مُولْ لبِّيسْري» تصفيقات.. والآن جاء دور يوسف «مجنون شامة».

لازال شريط «النحلة شامة» يملأ الفضاء، وأنا ممدد فوق السرير أستعيد تفاصيل «حلقة» الأحد في باريس.. وأفكر بأنه لو كانت هذه الأغنية موجودة ساعتها، لأثثت بها الفاصل الموسيقي الذي يسبق حكاية مجنون شامة.

كنا نبرمج دور يوسف في الحكي إلى آخر الحلقة لسبب أساسي: هو أن مرحه كان ينقلب إلى بكاء لا يكف، فتنتهي الحلقة في جو من الكآبة.

وما أعمق كآبة السُّكارى!

كان يحكي الحكاية نفسها، حكاية شامة، حبه الأول بأصيلة، بكثير من الحنين والشجن. فينجح في جعلنا نشاهد شريطهما لقطة فلقطة تتسرب إلى قلوبنا كلحن حزين.

ينتصب يوسف أمامنا بصعوبة من فرط الشرب، ليحكي ببطء وبرومانسية مؤثرة، تزيدهما لهجته الشمالية عذوبة، تمنعنا من مقاطعته:

«كانت الابنة الوحيدة لمدير الثانوية التي كنت أدرس بها.

كنا نتبادل النظرات وهي عائدة إلى بيتها من ثانوية البنات، حيث أقف مسمراً إلى أن تدخل بيتهم.

استمر هذا الوضع لسنوات وأنا أكره العطل ولا أتجاسر على الكلام معها. ثم لا أعلم من أين جاءتني الجرأة يوماً فمددت لها رسالة وأنا أمر بمحاذاتها. أمسكت بها بسرعة وهي صامتة وقد احمرت وجنتاها. وفي الغد والقلق يعصرني ألقت بالرد على رسالتي أرضاً وهي تمر أمامي. وهكذا، لم نتبادل سوى بعض الرسائل ولمسات يد وقبلة واحدة خاطفة على خدها، كانت تؤثث ليالي وتلهب خيالي.

أحببتها بقوة الصبا وبراءته وتعاهدنا على أن نحب بعضنا طول العمر.

لكن خلال العطلة الصيفية تقدم لخطبتها ابن عائلة ميسورة فزوجها والدها.

لم يكن بإمكاننا فعل شيء سوى البكاء وقد بكيت لشهور وعشت على ذكراها لسنوات..

كانت الحب الذي لم ولن أطاله..

تصوروا، لقد أعطتني موعدا الليلة قبل ليلة زفافها..

بحديقة الثانوية خلف بيتها التقينا بعد أن نام العالم.

«لن أكون لأحد غيرك يا يوسف» قالت والدموع تغزو عينيها. وقلت أنا: «شامة، لن أفعل شيئاً يؤذيك أو يقلل من احترام زوجك لك، سوف أحبك بكل حنان فقط»».

هنا يجلس يوسف قبالتنا وقد بدأت عيناه تدمعان، ليستأنف وكأنه يرسم لوحة:

«فوق العشب الأخضر المزين بزهر الأقحوان، مدّدتها، جسداً عارياً تعكس تضاريسه ضوء القمر.

تحررتُ من قميصي وبنطلون الجينز وتمددت برفق فوقها رافعاً ذراعيها إلى أعلى، فانتصب النهدان.

مررت لساني على الحلمتين الواحدة تلو الأخرى، قبل أن تعبث أسناني بلحمهما وهي تخنق تأوهات تشي بامتزاج الألم باللذة.

كلما تأوهتْ ازددتُ تهيجاً.

تهيج الطبيعة من حولنا..

حشرات فوق العشب تلامس جسدينا المنجرفين بسيل من أحاسيس غير عادية.. وزهور الأقحوان تبدو كما لو تتفتح تحت إيقاعات نبضينا.

أما القمر فكأنه تسليط ضوء ينصبّ على بؤرة مشهد فوق خشبة مسرح.

كل المسام منتصبة انتصاب السنابل.

يمتزج عرق جسدينا بإفرازات الحياة كما يمتزج صوت الحب بأصوات الطبيعة الحية..

هي الحياة تنبع من الأرض لتعود إليها..

فأي فعل للحب أبهى من فعله على فراش الطبيعة، حيث المحبون كائنات كغيرها لا تحتفظ من كينونتها إلا بلبّ جوهرها، بعيداً عن رتوش الحضارة وزيف طقوسها، بعيداً عن أنظار البشرية وأحكامها.

وحده القمر في استدارة كاملة، كعدسة سمائية، يلتقط صوراً لاستدارة نهدين تنافسانه في روعة الضياء.

أنفاس بين مد وجزر وزبد يوقع التراب.

هدأ جسدانا بعد حين، هدأة حبيبين بعد التحام.

استرخت بين أحضاني وغفت كأنها تستوقف الزمن، وأنا أنظر إلى عريها المتلألئ تحت ضوء القمر بحنو، وإذا بمد من مشاعر بين السعادة والحزن تغمرني حد البكاء.

بكيت طويلاً وأنا أنظر إليها هادئة كوردة، كحمامة، كملاك.

لم أكن أتصور أن منظر جسد عار يمكنه أن يرج مشاعري إلى هذا الحد.

كم من الوقت غفت وكم من الوقت قضيت محدقاً فيها؟

ومن يفك أسرار الوقت حين ينتفي الزمن؟

وحده زمن الحب، الممتد بين السماء والأرض، النابض بقلبينا، يحرك النجوم فوق رأسينا.

ثمة لحظات لفرط ما تختزل بحدتها كل المشاعر والأحاسيس، تجعلنا نحس بأننا جاهزون للموت بعدها، دون ندم على شيء، إذ لا شيء بعدها يستحق عناء الحياة.

أي برهان حب أكبر من هذا؟ إنها أسمى مخاطرة قامت بها امرأة من أجلي لغرض الحب فقط».

يتوقف يوسف وكأن اللحظة مرت لتوها ولا تزال انفعالاتها تهز أعماقه.

يجهش باكياً، وقلوبنا تبكي معه. يهدأ بعد فترة ليسترسل:

«أعذروني يا أصدقائي، ستظل ذكرى تلك الليلة، وذاك العطاء المبهر الذي أغدقته علي شامة زادي خلال سنوات كفاحي مع الحياة. إنها ملاذي، كمخبئ الطفولة، ألوذ إليه كلما أرهقتني الأيام.. إنها دفق يغسل بخل العالم.

أتعلمون؟ بقدر ما هي غزيرة ومتعددة حياتي الجنسية في أوروبا، تفتقر إلى إشباع عاطفي لم أعرفه إلا مع شامة. أبحث في كل قبلة وفي كل عناق عن رعشة تلك الليلة.. أبحث في كل امرأة عن شامة التي منحتني أكبر برهان على حب سأظل أحمله وشماً في قلبي ما حييت.

أين هي الآن؟

أما زالت ذكراي بخاطرها؟ هل تستحضر مثلي ذاك اللقاء؟ أم ترى قد غشاه غبار النسيان؟

ماذا لو كانت الظروف رحيمة بحبنا وكانت حقاً من نصيبي؟ كيف كانت ستكون حياتي الآن؟»

يدخل يوسف في نوبة من نحيب تكون ختام حلقتنا. نغادر وكأننا نخرج من قاعة لسينما بعد مشاهدة فيلم حزين.

فرقتنا الظروف بعد أن أنهينا الدراسة واختار كل منا مصيره. هاجر يوسف إلى أمريكا بصحبة فنانة تشكيلية من أصل إيطالي، فيما عاد الدكتور رشيد ليستقر في المغرب، وأصبح حميد رجل أعمال ناجح في باريس. أما أنا فقد لبيت نداء جريدة عربية تصدر من لندن لتبدأ يومياتي في بلد الضباب.

فتحت عيني لأجد خيوط الشمس قد اقتحمت سريري، بينما نور الغرفة لا يزال مشتعلاً. ألقيت نظرة على ساعة يدي، إنها السابعة صباحاً، لازالت أمامي ثلاث ساعات قبل موعدي مع مسيو فيليب مشتري البيت.

نهضت حاملاً ثقل ذاكرتي في اتجاه المطبخ، أعددت قهوة وعدت لألقي بثقل جسمي على أريكة الصالة.

أحاول أن أتخيل ما سيصبح عليه هذا البيت بعد أن يستلمه مسيو فيليب.

هل سيحتفظ برائحة ربيعة؟ هل سيظل شبح أمي يتردد عليه؟

وهل للأمكنة من ذاكرة؟

سيعمل مسيو فيليب، لا محالة، على محو الحنين بطلاء جديد. سيفتح نوافذ جديدة على وادي أم الربيع، وربما تصبح غرفتي حماماً..

إنه رجل أعمال يشتري ويبيع ليحقق ربحاً.

وأنا سأبيع ذكرياتي مع ربيعة لأصنع أخرى في أغادير مع إسلان.

«التجارة فن الممكن والعشق فن المستحيل».

تلح علي هذه الجملة لحميد بعد أن أصبح رجل أعمال ناجح.. فأستعيد تفاصيل آخر لقاء جمعنا، سنوات بعد زمن «الحلقة».

كان ذلك خلال مؤتمر لرجال الأعمال في لندن أشرفتُ على تغطيته لحساب الجريدة.

سألني:

- كيف حال زوجتك وابنك يا «مُولَ اوْلِيدَاتْ»؟

- لقد طلقت زوجتي أما ابني فيرحمه الله.

- معذرة صديقي، لم أستطع أن أستوعب، ونحن طلبة، كيف كنت متزوجاً في سن مبكرة قبل أن تتم دراستك.

قلت مبتسماً:

- ولا أنا.

قبل أن أضيف:

- كنا من الجيل نفسه إلا أنه كان يتهيأ لي بأنك في سن تستحق معها أن تحظى بتقاعد مستحق: لقد عشتَ حيوات في حياة واحدة. كنت أحس أن حياتي مقارنة بحياتك رتيبة خالية من المفاجآت، بل وخالية من الحياة خارج الدراسة.. كنت أنا آخذ الحياة مأخذ الجد، في حين كنت أنت تعاملها باستخفاف، بل وتقامر بها.. كأنها سلعة تتاجر فيها.

- أجل، ولا أزال.. أنا أحب المقامرة بالحياة، أحب اللعب بالأموال وأتحداها. تعلمت كيف أكون لاعباً حذقاً،

أعرف متى وكيف أشتري وأعرف أكثر متى وكيف أبيع، أنا مع الحياة تاجر شاطر.

- أتذكّرُ «حلقة» الأحد عند رشيد ومغامراتك اللذيذة. . كنتَ تاجراً حتى في علاقاتك بالنساء، أليس كذلك؟

رد حميد مازحاً:

- عضلة قلبي لفرط ما تمرنت على تسلق أعالي العواطف أصبحت صلبة وقوية كعضلة ساق رياضي يحترف العدو الريفي.

ضحكت ضحكة مجلجلة، قبل أن أقول:

- لا أظنك كنت عاشقاً ولهاناً لإحداهن، إذ كيف يمكن الخلط بين الحب والتجارة؟

- أليست علاقاتنا تنبني على البيع والشراء أو إذا أردت على الأخذ والعطاء؟ وأن لا عطاء بدون مقابل ولا أخذ بدون مقابل؟

- ربما.

- المقابل ليس بالضرورة شيئاً ملموساً قد يكون إحساساً أو عاطفة أو رد اعتبار، قد يكون أمراً واعياً أو انعكاساً لأمر لا واعٍ.

- لكن التاجر تحركه خلفية الربح، لابد أن يخرج رابحاً من كل صفقة.

- وما الغريب في الأمر؟ أليس الحب ربحاً؟ أليس الجنس ربحاً؟ تربح لحظة صفاء، تربح فرحة أو سعادة. التاجر النبيل هو من يريد أن يربح الآخر أيضاً. على مستوى مختلف، لكنه ربح في النهاية.

- والزواج؟ أين تصنفه؟

- حقيقة الأمر أنني رجل لا يحب الارتباط. الارتباط يحدّ من لَعبك، يحدّ من مخاطراتك، يحدّ من حريتك في أن تربح أو تخسر.. كنت أحس بأنني في الزواج أساساً سوف أخسر الكثير. إنه صفقة غير مربحة لذا استغنيت عنه وربحت نفسي.

استدرك قائلاً:

- آه، نسيت أن أخبرك، لقد سبق لي أن تزوجت بامرأة فرنسية زواجاً أبيض.. كان لا بد أن أحصل على الجنسية الفرنسية حتى أستثمر بحرية بفرنسا. فـ«من يأكل مع الشيطان تلزمه ملعقة كبيرة» كما يقول المثل الإنجليزي.

سألت بفضول:

- كيف تم ذلك؟

- بسهولة: دلّني أحد الأصدقاء على امرأة من أصل جزائري تدعى آمال، قال بأنها ستساعدني في الأمر. طلبت مني قدراً من المال لا يستهان به، علمتُ بأنه يوزع على جهات متعددة ومختلفة، أهمها المعنية بالأمر «الزوجة»، والحاج الريفي، وهو فقيه وعَدْل ومُختص بالشعوذة وصرع الجن وتدبير زيجات بيضاء للجنسين معاً من الجالية المغاربية، ثم آمال، بالرغم من كونها تؤكد بأنها تسعى لفعل الخير فقط ولا تتقاضى مالاً مقابل خدماتها.

وهكذا عقدت قراني على امرأة تدعى مونيك.. اقتصرتْ علاقتنا على وجود بعض أغراضي في بيتها، تُوهم المراقبين بأن هناك رجلاً في البيت. حصلت على بطاقة الإقامة لعشر سنوات بعد ستة أشهر، وبعد سنتين أصبحت مواطناً فرنسياً.

بعد هذا طلبت مونيك الطلاق وقد كانت على علاقة، حقيقية هذه المرة، مع طالب إفريقي من نيجيريا ينوي الزواج بها عن حب، على حد قولها.

ثم أضاف مازحاً:

- أتعلم؟ في فرنسا لم يعد أحد يرغب في الزواج غير المثليين ورجال الكنائس.

ضحكنا معاً، قبل أن أسأل أنا الذي يعتبر الزواج تتويجاً للحب:

- أما سبق لك أن أحببت امرأة وتمنيت الزواج منها؟

أطرق برهة قبل أن يهمس كمن يبوح بسر:

- التجارة فن الممكن والعشق فن المستحيل.. وحده الحب المستحيل أبدي.. وقصص الحب الحقيقية كانت دائماً لا أخلاقية.

أذكر أن ما قاله ساعتها قد آلمني وقد طعن بصيص أمل في الحب كنت أتشبث به.

أتساءل الآن، وأنا على أهبة الرحيل إلى إسلان، وإحساس بخفة يداهمني، إن كان هناك ربح في هذه الحياة أعظم من الحب.

الفصل الثالث

لا أعلم كم من الوقت مرّ وأنا أكتب، ومازلت، وسأظل. . لن أتوقف قبل أن أحقق لها أمنيتها في أن أكتب قصتنا.

أغفو أحياناً من شدة التعب، لكنني أنتصب فجأة لأركض خلف عقارب ساعة تهرب بي إلى العالم الآخر.

قد لا يكون لدي وقت لإعادة قراءة أو تصحيح ما أنا بصدد كتابته. لكن لا يهم، فالحياة نعيشها من دون مسودات ومن دون إمكانية تصحيح فقرة من فقراتها. .

لتكن إذاً كتابة مثل الحياة.

الأكل بجانبي لكنني لا أشعر بالجوع. . يكفي أن أتذكرها داخل مطبخها في بيتها في لندن لأشبع. .

تتراءى لي كما لو كانت كتلة حركات. . حركات تنساب من جسدها كأنه خلق فقط ليقوم بها: طريقتها الفريدة في طي العجين، طريقتها في تحريك الطاجين بلطف كأنها تخاف أن تؤلم قطع اللحم بداخله. طريقتها في صب المرق على الكسكس كما

لو كانت تسقي ورداً، وطريقتها في صب الشاي المنعنع كما لو كانت تغازل الكأس، وفي تفريك حبات الرمان حبة فحبة..

تتراءى لي الحياة، الآن، وقد غدوت خارجها، كمطبخ كبير.. كل واحد منا يحاول أن يتوصل فيه إلى وصفته الخاصة، تلك التي تمكنه من الاستمرارية بأقل قدر ممكن من المعاناة، فيبتكر لها توابل تضيف نكهة الوهم الضرورية لحياته.

أذكر سعادتها المشعة يوم افتتاح مطعمها «علبة التوابل» في أغادير الذي حضرته نخبة من وجهاء المدينة.

كانت إسلان ترفل في فستان أنيق وبسيط كجمالها، تصافح المدعوين بلطف، وترد على أسئلة الصحافيين وأنا أرقبها بفخر شديد.

وإذا بشخص يتقدم نحوي مبتسماً في اندهاش:

- فؤاد.. غير معقول.. ما الذي جاء بك إلى أغادير؟

- رشيد.. الدكتور رشيد.. يا للصدف الرائعة!

تعانقنا بحرارة الصبا الذي لمنا يوماً.. وقضينا وقتاً نتفحص بعضنا.. وكل منا يبحث تحت قناع السنين عن ذاك الذي عرفه في باريس.

بادر هو بتلهف:

- متى عدت إلى المغرب؟ لا بد أنك في عطلة؟

- عدت منذ ثلاثة أشهر.. ولست في عطلة.

- لن أصدق بأنك تسكن أغادير.

- لا صدّق.. أنا زوج إسلان.. أعني الشاف إسلان صاحبة المطعم.

- رائع! آه.. كم تمنيت أن تجمعنا الأيام من جديد!

- هل أنت أيضاً في أغادير؟.. ألم تكن تنوي الاستقرار في مراكش؟

- بلى، كنت مستقراً في مراكش في البداية، ثم جئت هنا منذ سنوات.. لقد دخلت مشروع مصحة خاصة مع بعض الزملاء.

تعانقنا من جديد ونحن نضحك كالأطفال. وللحظة نسيت باقي المدعوين وسحبته إلى البوفيه لنشرب نخب لقائنا.

انتبهت بعد حين بأنني لم أقدمه إلى إسلان، فقلت:

- تعال أعرفك إلى زوجتي.

- مهلاً، أهي زوجتك التي أخفيتها عنا عندما كنا طلبة؟ وكان لك معها ابن أليس كذلك «يامُولَ اوْلِيداتْ»؟

- الله! مازلت تذكر هذا اللقب يا «لحْلايْقي».. لا، ربيعة طلقتها منذ عهد طويل.. وابنها رحل عنا وهو في سن الخامسة.. إسلان هي الحب الذي جاءني بعد عمر من الانتظار.

تقدمنا من إسلان التي التفتت ما إن أحسّت وجودي:

- إسلان. . هذا هو صديقي الدكتور رشيد صاحب «حلقة» الأحد الذي حدثتك عنه. . تصوري إنه مستقر في أغادير.

- أهلاً، مرحباً بك، سعيدة بأنكما قد التقيتما من جديد.

- وأنا أسعد. . تهاني الحارة بمناسبة افتتاح مطعمك.

- شكراً لك دكتور رشيد.

عادت إسلان للترحيب بمدعويها فاختليت برشيد الذي علق بلطف:

- إنها حقاً رائعة!

- أجل هي كذلك، شكراً. . قل لي أنت. . هل لك زوجة وأولاد؟

- لي زوجة. . وولد. . ومشاكل لا تحصى.

- لماذا لم تحضر معك؟

- لأنها في بيت والدها مع ابني وليد. . تريد مهلة للتفكير في علاقتنا.

- آسف، أتمنى أن تتحسن الأمور.

ثم أضفت كمن تذكر شيئاً:

- أخبرني. . هل لديك أخبار عن أصحاب «الحلقة» يوسف وحميد؟

- يوسف استقر في أمريكا لسنوات ويبدو أنه الآن في دبي. . «مجنون شامة» أصبح فناناً كبيراً.

- ترى هل مازال يبكي كلما تذكر ليلته معها؟

- بالتأكيد نعم. إنها حساسية الفنانين تجعلهم يتعلقون بوهم طول حياتهم ما دام يحفزهم على الإبداع، أما حميد فلا أخبار لدي عنه.

- حميد «مُولْ لبّيشْري» أصبح رجل أعمال ناجح جداً. التقيته منذ سنوات في لندن في مؤتمر لرجال الأعمال.. كان لا يزال أعزب ويعيش في باريس.

رن هاتف الدكتور رشيد وكانت المكالمة من مستعجلات المصحة. اعتذر ورحل مهرولاً بعد أن تبادلنا أرقام هواتفنا واتفقنا على استعادة الزمن الضائع.

انتهى الحفل في وقت متأخر وعدنا إلى بيتنا المطل على البحر.

كانت سعادة إسلان لا توصف.. وكنت سعيداً بسعادتها.

قالت:

«حققتُ أحلاماً كثيرة لكن هذا أعظمها.. لأنك صانعه».

أجبت بمقولة اقتبستها عن فرانسواز ساجان:

«أن تحب أحداً هو أن تحب سعادته».

بدأت حياتنا بعد افتتاح المطعم تماماً كما حلمت بها إسلان.

لم يكن الإقبال الكبير على «علبة التوابل» ما يعمق إحساسها بالاكتمال بقدر ما كانت الحرية التي تتمتع بها في ابتكار أطباق جديدة بنكهات تراوح بين «وازابي» اليابان، و«رأس الحانوت» المغربي، وتوابل الهند. وتقديمها بالطريقة الفنية التي تليق بها.

طلبت مني أن أساعدها على تسمية الأطباق بطريقة شاعرية كما يفعل الفرنسيون. قائلة:

- أريد لقائمة الأطباق أن تبدو كديوان شعر.. لاحظ الطريقة الفنية التي يقدم بها الفرنسيون أطباقهم. إنها عبارة عن قصائد تثير الخيال وتفتح الشهية قبل أن يحضر الطبق في زهو كلوحة فنية.. إن كانت الأطباق في المغرب تؤكل ففي فرنسا الطبق نراه، نشمّه، ونكاد نسمع موسيقاه الداخلية قبل أن نتذوقه.

- هذا صحيح، ومع ذلك فالعالم بأسره يشهد بأن الطبخ المغربي من أحسن أنواع الطبخ في العالم.

- لا شك في ذلك، وأنا أول من تفخر به، لكن المشكلة تكمن في طريقة التعريف بالأطباق، تسميتها، تقديمها. يؤسفني أن أطباقاً تتطلب مجهوداً كبيراً وتحمل كل النكهات الساحرة، نسميها باختصار شديد وبفظاظة «لَخْليعْ»، «أزْفيسَه»، «لَحْريرَه»، أو مجرد «طاجين»، دون أن نعلن عن مكونات هذه الأطباق.

- في هذا معك حق.

- أتعلم حبيبي؟ بلدنا غني بأسماكه والمغاربة يستهلكون اللحوم أكثر، لهذا أود اختراع أطباق جديدة من السمك تحفز الناس على استهلاكه.

كنت أجد متعة في مساعدتها في الجانب الإداري للمطعم وأكتشف، بالمناسبة، عالمها السحري. كما كنت أقضي وقتاً مع الدكتور رشيد الذي أصبح من الزبائن الأوفياء، وقد أضحى إنساناً آخر له معاناة لم أكن أتخيلها ونحن طلبة.. فلم نكن نعي، ساعتها، إلى أي مدى يمكن للمظاهر أن تكون كاذبة.

كان يحس بوحدة قاتلة في غياب زوجته وابنه عن البيت.. يشتغل طول النهار بين المصحة والعيادة ويأتي المطعم ليلاً.. وكان لحديثنا شجون.

سألته ونحن نقارع كأساً على طاولة العشاء التي اعتدنا أن نجلس إليها في شرفة المطعم:

- لماذا غادرتْ زوجتك البيت؟

- «نحتاج إلى بعض المسافة بيننا لنعيد النظر في حياتنا»، قالت..

ثم أضاف بنبرة حزينة:

- في أيّ حياة من الحيوات سأعيد النظر الآن؟

- ما سر هذا الحزن الدفين عزيزي؟

- وأنا في طريقي إليك، تلقيت مكالمة من زوجة والدي.. تخبرني بأنه على فراش المرض وبأنه يرغب في رؤيتي.

- آسف، لابد أنك حزين لسماع هذا؟

قال بلهجة مرارة:

- أنا حزين لأنه يطلبني الآن.. بعد فوات الأوان.. بعد أن تخلى عن والدتي وعنّي..

ولهذا هناك صوت بداخلي يحثني على الذهاب وصوت حانق يصدّني.

فاجأني ما قاله عن والده. ونحن في باريس، كنا نعلم بأنه رجل غني وذو نفوذ ولهذا لم يكن رشيد يعاني مثلنا من صعوبات مادية. سألت بدهشة:

- لم أكن أعلم أن والديك منفصلان عن بعضهما.

- لم يطلق والدتي، لكنه رحل عنا مع زوجته الثانية إلى الرباط وأنا لازلت طفلاً، أنجب منها أطفالاً آخرين عوضوه عني. وأعتبر أن واجب الأبوة يقتصر على النفقة.. كانت علاقته بنا تقتصر على إرسال نقود كل شهر يغسل بها ذمته..

- كيف قبلت والدتك بذلك.

- كانت تحبه ولا أفهم كيف ظلت تحبه حتى آخر رمق.. تصور، كانت تدافع عنه قائلة فيما يشبه التفهم أو الحنان: «إنه ليس إنساناً سيئاً.. إنه مختلف فقط»، مضيفة في عتاب رقيق: «يبدو أن بعض الرجال لا يمتلكون بذرة الأبوة».

لم أجد بما أرد. خيّمتْ لحظة صمت علينا وهو يرتشف من كأسه قبل أن يسترسل، في شبه مناجاة، كما لو كان يرد على والدته، وقد انعكست على محياه لمحة حزن معتق:

- كنت طفلاً، ولم أكن في حاجة إلى أب مختلف. كنت أحتاج أباً عادياً، أباً كباقي الآباء، يلعب الكرة معي وينتظرني عند خروجي من المدرسة. أشكوه شغب رفاقي وأرى بريق الفخر في عينيه.

أين كان كل هذه السنوات؟ أين؟ يوم خضعت لعملية الختان، ويوم استئصال اللوزتين، ويوم وفاة جدي، ويوم استبدلت أول سن، ويوم غنيت في حفل نهاية السنة، ويوم.. كم سنة مرت؟ وكم حفلاً أخلفَ؟ وأنا أنتظر قبل أن أيأس وأقرر بأنه مات.

ها هو يعود إلى الحياة ليطلبني على فراش الموت، لماذا؟ ولماذا ألبي نداء من لم يُلبِّ قط نداءاتي؟ لماذا ألبي نداء من قضيت العمر أروّض النفس على الاستغناء عنه؟

قلت في محاولة إقناعه بأن لا يتردد في الذهاب إليه مهما كان الوضع بينهما:

- لأننا لا نخلف نداء الدم.. لأن نداء الموت أقوى من نداء الحياة.

تجاهل ردي وأضاف:

- تقول سجلات الحالة المدنية بأنه أبي، وصور لنا قبل الخامسة من عمري تزكي ذلك، وماذا بعد؟ هدية مرة في السنة بمناسبة أعياد ميلادي..

الهدايا يتبعها تقبيل وشكر. ولأنني لم أحظ بترف تقبيله فقد كنت أرفضها.

ولو سامحته عن نفسي، كيف أسامحه عن التي ماتت كأرملة دون زوج يقوم بواجب النعي؟ كان في مهمة رسمية، قال الذي جاء لينوب عنه.

العطاء مرآة التلقي يا صديقي.. لا وجه لمرايانا غير الشظايا..

وليس بمقدور أحد ترميم الشظايا.

قلت بكل ما استطعت إبداءه من تفهم:

- أعلم ما تحسه، لقد فقدت والدي في سن مبكرة.. الأب ليس بالضرورة ذاك الذي أنجبنا، ويبدو لي بأننا نعوضه ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، فالإنسان في حاجة إلى صورة الأب ليكتمل توازنه.. أليس كذلك يا دكتور؟

- معك حق. . كانت والدتي تأخذني إلى عيادة طبيب للأطفال في حينا يدعى الدكتور الدباغي، رجل طيب، شكل في ذهني صورة الأب المثالي لما كنت ألاحظ من تصرفاته مع أبنائه، لكنه مع الأسف فارق الحياة عند متمِّ دراستي الثانوية. كان مثالي الأعلى الذي احتذيته. سألني مرة عمّا أريد أن أكون في المستقبل، أجبت دون تردد: طبيباً مثلك. فقال لي بلطف شديد: «أنت أهل لهذا».

هذه الجملة بالضبط، كانت كفيلة بإقناعي بأنني فعلاً «أهل لهذا». . لقد كانت الدافع في اختياري لمهنة الطب.

صمتنا معاً، وقد تألمتُ لما سمعته من الدكتور رشيد الذي بدا مثل طفل تعلم مبكراً كيف يخفي دموعه. فقلت كمن يساءل نفسه:

- ماذا نعرف عن حياة الآخرين؟ ماذا نعرف عن حياة آبائنا؟
- نعرف انعكاس أفعالهم علينا وهذا يكفي.

أضفت في تأمل:

- ليس بإمكاننا نزع صفحة من كتاب حياتنا.

ردَّ حاسماً:

- لكن بإمكاننا أن نلقي بالكتاب في النار.

استيقظت إسلان على غير عادتها متأخرة وقد اعتادت أن تتسلل من الفراش باكراً.

سألتها وأنا أجدها بجانبي:

- صباح الخير يا عروس.. ما هذا الكسل؟

- صباح الخير حبيبي.. أحس بشيء من التعب.

- لأنك تشتغلين كثيراً.. يلزمك طباخ كفء تعتمدين عليه في تسيير المطبخ.

- معك حق. خاصة وأن مدير معهد الفندقة قد اتصل بي ويود أن أعطي بعض الدروس لطلبته.

- بماذا تشعرين حبيبتي؟

- كأنه إرهاق.. ثم هناك قرحة في طرف لساني تزعجني.

- افتحي فمك.. آه، فعلاً.. أكيد ذقت شيئاً ساخناً جداً أو ربما هي عضة من أسنانك.

- هذا ما ظننت.. لكنها ظهرت منذ مدة.. وأصبحت تزعجني فعلاً.

- لماذا لم تخبريني من قبل لنعرضها على الدكتور رشيد. . إن اختصاصه أمراض الأنف والأذن والحنجرة.

- أما قلتَ بأنه قد سافر؟

- أجل، لقد سافر بالأمس لزيارة والده في الرباط. . سوف أكلمه على الهاتف لأتقصى أخباره وأعلم منه متى ينوي العودة. . ثم، بإمكاننا أن نعرضها على أحد زملائه في المصحة.

- لا، لا داعي، لننتظر عودته أحسن.

رجع الدكتور رشيد بعد أربعة أيام. لقد مات والده مباشرة بعد رؤيته. . حضر جنازته كابن بار وعاد.

هرعت أنا إلى بيته ما إن وصل:

- البقية في حياتك يا عزيزي.

- لا أحزنك الله.

كان التعب بادياً عليه، ولحية خفيفة تصبغ بالحزن وجهه. دعاني للجلوس وطلب قهوة من الشغالة. سألته بفضول:

- كيف كان لقاؤك بوالدك؟

لاح صوته بتلقائية من به حاجة إلى التنفيس:

- ما إن وصلت حتى انفض كل من كان معه في الغرفة ليتركوننا لوحدنا. . تصوّر، كل الغضب الذي صاحبني لسنوات تحول إلى مدٍّ من الأسف والأسى أمام هشاشته وهو ممدد أمامي. .

هو الذي عبر حياتي كشبح أو خيال لم يبق منه سوى شبح إنسان. . كان شخصاً آخر لم يعد يشبه نفْسه.

رفع عينيه نحوي وهو يقول بلسان ثقيل: «ولدي. . رشيد. . جئت. . شكراً».

أحسست بدوري ثقلاً في اللسان، لم أستطع أن أنبس بكلمة.

أمسكتُ بيد مُدّت إلي في ارتعاش وجمدت. .

لا أنا مقبّل إياها ومنتحب، كما يفعل الأبناء الصالحون في مثل هذه المواقف، ولا أنا رافضٌ بحنق الأبناء المتخلى عنهم.

يغلب الانفعال على الدكتور رشيد، فيصمت قليلاً. لم أستطع قول شيء. استرسل:

- كانت يده كعصفور جريح تنتفض بين يدي على إيقاع أنفاسه المسموعة، بينما تعكس عيونه الدامعة إحساساً بفخر. قال: «عظيم ما أصبحت عليه في غيابي».

ابتلع رشيد غصة وهو يحاول أن يحبس دموعاً تكاد تتفجر من مقلتيه.

- كم تمنيت أن أسمع منه هذا من قبل. . أحسست للحظة انتفاضة ذاك الطفل الذي مازال ينتظر طرقة باب تعتذر عن دموعه. . جاءت الطرقة متأخرة جداً. .

كيف للقلب أن يكون صافياً ولا موت يمحو الحكاية.

سألت بصوت خافت:

- ممّ كان يعاني؟

- لا أعلم. . غادرتني صفة الطبيب وأنا ألج غرفته بحيث لم أسأل عن صحته وعن المرض الذي يعاني منه. كنت فقط ذاك الطفل القادم من ماضيه، طفلاً يريد أن يفهم ما فعل به الكبار، ولا يدري بعد كيف يصوغ الأسئلة التي تتلاطم بداخله.

تصور يا صديقي، فرغم نجاحي المهني مازال ذلك الطفل الذي يعتقد بأن والده قد تخلى عنه لأنه ولد سيء يوجع قلبي. مازال يتراءى لي في عزلته يبكي بعيداً عن عيون أمه أو يتشاجر مع أحد التلاميذ الذي نعته بـ«ولد أمه». .

كانت حياة الأطفال لعباً وحياتي معركة.

جمدت في مكاني احتراماً لكبرياء هذا الحزن وهذا البوح الصادق. . فيما واصل هو:

- لم أدر ما أقول له. . كان الصمت بيننا صراخاً يحمل ثقل الكلمات المحتجزة. . ظللت برهة أتأمل هذا التلف الذي أصاب علاقتنا. . ثم، دون أن أدري كيف، ولا لماذا، سحبت محفظتي من جيب سترتي وأخرجت منها صورة لوليد، نهضت وصوبتها أمام ناظريه، قائلاً بشيء من الحياء: «وليد، ابني». ارتبك وهو يحدق في الصورة، ندّت عنه ابتسامة وأومأ برأسه مرات. قلت

بنبرة فخر: «عمره الآن عشر سنوات. . إنه نبيه وشقي. . يريد أن يصبح ربان طائرة». .

ثم صمتت وقد أحسست بمد من الشوق لوليد يباغتني. وأنا أتساءل بماذا يا ترى يفكر عقله الصغير الآن؟ كيف يؤوّل بعده عني؟

فجأة، تذكرت يوم وصلني من صديق في ساحة المدرسة خبر أن والدي قد عاد، وأنه ينتظرني أمام باب الثانوية. لم أعلم ساعتها لماذا ولا كيف استطعت النط من فوق سور الساحة والهروب إلى بيت صديق لأختفي عنده. كان عمري آنذاك ثلاثة عشر سنة، لفرط ما افتقدته كنت حانقاً عليه وكعقاب له رفضت أن أراه معاقباً نفسي بالمناسبة. مكثت عند صديقي إلى أن رحل.

كان ذلك آخر موعد أخلفه معه.

ظللت لسنوات أحس بالذنب وأتساءل إن كان تصرفي هذا هو الذي أبعده أكثر؟ لكن لماذا لم يفرض نفسه كأب له حقوق؟ كنت أتمنى في ذروة غضبي أن يقتحم والدي بيت صديقي ويأخذني إلى البيت ولو بالقوة. لكنه، احترم رغبتي، كما قالت والدتي.

وما أدرى الكبار برغبة طفل يتألم؟

كنت أحس بأنه قد تخلى عني وكنت أحتاج منه أن يبرهن لي عكس ذلك، ولكنه استسلم ورحل من جديد.

تخيل معي، لقد لفظ أنفاسه الأخيرة بين ذراعي بعد أن همس في أذني: «سامحني يا ولدي».

يبتلع هو غصة، وأهمس أنا:

- رحمه الله.

صمتنا معاً تلفنا غيمة سوداء. ثم سألني:

- أتعلم ما أحسسته وهو يحدق في صورة وليد؟

- ماذا؟

- أحسست بالرعب من فكرة أن يكون وليد غاضباً مني.

وتساءلت «ماذا لو كنت مثل والدي أفتقد إلى بذرة الأبوة على حد قول والدتي؟ وفاقد الشيء لا يعطيه.. لا أريد لعلاقتنا أن تختزل في نطفة..

- لا لا شك عندي في أنك تحبه وأنك أب رائع.. فقط لا تدع خلافك مع زوجتك يؤثر في علاقتك مع ابنك.

- أجل أنا أحبه جداً وأشعر بصعوبة في التواصل معه.. ربما لجهلي بكيفية التعامل مع الأطفال.. وربما لأنني لا أمتلك اللباقة الكافية للتعبير عن عواطفي.

سمعنا رنة جرس الباب. لابد أنهم أصدقاء أتوه للقيام بواجب العزاء. وإذا بطفل يهرع في أحضان رشيد منادياً «بابا.. بابا» يتبعه جده. ضمه رشيد بقوة ودموع تهطل رغم محاولة صدها.

وقفت أنا أمام ارتباك الجميع في خشوع يغلب علي الانفعال.. وانسحبت في هدوء مفكراً في نفسي:

ليت باستطاعة الإنسان إعادة هيكلة الطفولة بداخله وصياغة الذكريات من جديد.. ذكريات مختلفة.. خفيفة ومضيئة!

- لا داعي للقلق، استعملي هذا الدواء لمدة عشرة أيام. . تحاشي أكل كل ما هو حار أو حامض. . إن التأمت القرحة فهذا جيد، وإن لا، فسنضطر إلى القيام بفحوصات أخرى. . أراك بعد عشرة أيام إذاً.

قال الدكتور رشيد مصافحاً إسلان قبل أن يتجه نحوي:

- ما رأيك في جولة ذكورية غداً الأحد على مركبي. . إن لم يكن عند الشاف إسلان مانع.

ردت إسلان مبتسمة:

- لا أبداً، أنا أشتغل يوم الأحد وسأكون ممنونة لك لو أبعدته عن المطعم.

ودعنا الدكتور رشيد أمام باب العيادة.

ونحن في طريقنا إلى البيت قالت إسلان:

- الدكتور رشيد رجل شهم يستحق فعلاً أن يكون سعيداً. . هل أخبرك عن قصته مع زوجته وعن سبب الخلاف بينهما؟

- أجل.

- وماذا تنتظر لتحكيها إلي.. وبالطريقة التي تعجبني.. كما لو كنت بصدد كتابتها.

- حاضر حبيبتي، أعدك أن أحكيها لك ليلاً قبل أن تنامي.

ما إن وضعت إسلان رأسها، كالعادة، على كتفي حتى بدأتُ في سرد قصة رشيد، وقد جعلتني أجد متعة في «الحكي كتابةً» كما كانت تسميه:

«تعرف إليها خلال رحلة منظمة إلى التايلاند.

كان ذلك بعد وفاة والدته بقليل، وقد استلم لتوه قرار تعيينه كرئيس لقسم جراحة الأذن والأنف والحنجرة في المستشفى الجامعي في مراكش.

خلال حديث مع زميل له في القسم حول برنامج العطلة الصيفية، أخبره هذا الأخير بأنه ينوي الذهاب إلى التايلاند في رحلة منظمة قائلاً:

«هذا هو السفر الحقيقي الذي يقتلعك من جذورك ويبحر بك إلى عالم مختلف ومدهش».

ثم أضاف:

«لماذا لا تأتي معنا؟ فأخت زوجتي تعمل في وكالة للأسفار ومن السهل أن تضيفك إلى المجموعة».

لم تكن له مشاريع خاصة ولا كان قد فكر في العطلة.

كان في حالة حداد، ذاك الحداد الذي يغريك بالاستسلام

إلى المد الأسود بداخلك وفي الوقت نفسه يقنعك بضرورة التغيير في حياتك. وقد كان بحاجة ماسة إلى تغيير يعيده إلى ذاته ومتطلباتها الطبيعية.

هكذا، وجد نفسه في مطار محمد الخامس على الساعة السابعة صباحاً مع جمع ملتف حول المرشد السياحي الذي سوف يرافقهم، بانتظاره زميله المهدي وزوجته كريمة وأختها وفاء.

وفاء شخصية رومانسية إلى أبعد حد، تبكي أمام منظر الغروب، وتركض كالأطفال تحت المطر، ولها روح مرحة تجعلها تخلق حولها جواً من الفرجة والضحك. فقد كانت، على سبيل المثال، تقلد كل واحد من المجموعة وقد اختارت لهم ألقاباً خاصة: فالذي لا يبرح الكاميرا، يسجل كل شيء ويلتقط صوراً لكل شيء، أطلقت عليه لقب: «قناة الجزيرة»، والتي لا تكف عن التبضّع كانت «القُفّهْ أمّ وَدْنِينْ»، والذي يصب كل تركيزه في معاكسة التايلانديات كان «جْرُو خَالْتِي مَنّانَه»، والسمينة المبتسمة التي لا تشبع من حصص التدليك على الشاطئ كانت «البقرة الضاحكة». . كما كانت تفاجئهم كل لحظة وقد اجتهدت في قراءة ما يتعلق بالتايلاند وتقاليدها ومعتقداتها لتصبح بذلك دليلهم الخاص.

كان الدكتور رشيد مثال الطبيب الذي لا يعرف شيئاً خارج اختصاصه فأحس شساعة جهله أمام معلوماتها العامة حول كل شيء.

لم يكن قد مرّ على وفاة أمه أكثر من شهرين، كان في حداد ولم يكن يتصور أن في استطاعة أحد ما أن يجعله يضحك ملء فيه، أو يفتح قلبه للحياة من جديد. وها قد بدأ الحزن ينسحب شيئاً فشيئاً، بينما يتسرب شيء يشبه الفرح إلى داخله في غفلة منه.

وسط عالم يحكمه سوء الفهم أحس بقربها منه، بفهمها لهذه الغرابة التي تنبعث من شخصيته كما ينبعث الكلام من فم متلعثم.

أحس بارتياح معها، ذاك الارتياح الشبيه بالإعجاب.

هو الذي لم يكن يحسن اقتحام الفتيات أحس لأول مرة بأنه ليس بحاجة لفعل شيء، كانت هي بتلقائيتها تجعل العالم متواطئاً معه.

أحبت وفاء حزنه وغموضه، وكان بالتحديد هذا الجانب الغامض والمعقد في شخصيته هو الذي يخلق الارتباك لديها، فتحس بانجذاب نحوه..

يبدو أن النساء ينجذبن لكل ما هو غائم».

ابتسمت إسلان لهذا التعليق من دون أن تقاطعني.

«مضت الرحلة كحلم.

فالتايلاند بلد يتسم بهدوء أهله. حتى الكلاب فيه لا تنبح، وكأنها بدورها تعانق فلسفة بوذا، ذاك لأن لا أحد يطاردها بحجارة ولا أحد ينهرها، فتجدها ممددة على الأرصفة بكل أمان. وحده الفريق القادم من المغرب، كان يشكل الضجيج

الذي يعلن عن حضارة مختلفة: حضارة الكلام بصوت عالٍ، والضحك بصوت عال، والنقاش الذي يحتد وكأنه مشاجرة. كان له صخب إفريقيا وألوانها الفاقعة، وكانت للتايلانديين سكينة آسيا وانضباطها.

فحتى «جزيرة باطايا» التي تعتبر عاصمة الدعارة في العالم، الدعارة فيها صامتة، هادئة، لا يمكن للزائر أن يحدد لنسائها سناً. كلهن صغيرات، قصيرات ونحيفات كقطط هادئة.

«يلزمك ثلاث نساء لتحصل على امرأة واحدة تتوافق مع معاييرنا للجسد. فلدعارتنا ملامح بارزة: لها أحمر شفاه قان وسمنة تعلن عن أنوثتها وحركات خاصة وضحك مُدوٍ وجسد يتلوى» يقول رشيد.

لكن اللحظة الحاسمة في الرحلة كانت تلك التي قضوها في قطار ليلي يقلهم من مدينة شيان ماي الشمالية إلى مدينة بنكوك. كان الدكتور المهدي وزوجته كريمة ووفاء والدكتور رشيد يتقاسمون المقصورة نفسها، حيث توجد أربعة أسرة، اثنان من جهة اليمين، واحد فوق الآخر، وكذا من جهة اليسار.

نام الدكتور المهدي وزوجته من جهة اليمين وظل الدكتور رشيد ووفاء طوال الليل فوق السرير السفلي على اليسار يتأملان الطبيعة الخلابة التي تمرق خلف النافذة. كانت القرى تتوالى بأضوائها الخافتة، وحقول الأرز تزحف في خشوع، ورجال على مراكبهم يعبرون النهر.. لوحات تتلاحق في صمت أمام اندهاشهما، وحده شخير بعض الركاب يكسر الصمت بين الحين والآخر.

لم يتبادلا كلمة واحدة، كانا متوحدين مع الطبيعة في ليل يرتدي ثوب سحر سماوي. لم تكن ليلة، كانت لحظة شعرية، وكان لها وقع فريد على علاقتهما، بحيث جعلتهما يدركان بأن ما يجمعهما ليس مجرد إعجاب. وقبل نهاية الرحلة عبرا لبعضهما عن مشاعرهما، وبعد العودة بأسابيع معدودة، كانا قد تزوجا وبدءا العيش معاً.

إذا كانت الرومانسية وكان المرح هما ما يطبعان شخصية وفاء، فالغضب الداخلي المكتوم هو الوقود الذي يحرك شخصية الدكتور رشيد ويجعله لا يرضى بغير الانضباط والتفوق. صارم مع نفسه ومع الآخرين، لا يفهم كيف يمكن للمرء أن يتعامل باستخفاف مع أمور الحياة، لكن الانضباط المفرط أمر متعب لصاحبه، وقد ينثر الضجر من حوله، وهذا ما جعل علاقته بزوجته تتأزم مع مرور الوقت خاصة بعد مجيء ابنهما.

لم يكن يحسن الاعتناء بامرأة. وكانت متطلبات وفاء العاطفية والرومانسية تبدو ضخمة مقابل عطائه الذي، رغم كل الجهد الذي يبذله لإسعادها، لا يرقى إلى مستوى تطلعاتها. فكثيراً ما بكت لأنه نسي عيد ميلادها أو عيد زواجهما أو لأنه قضى نصف الليل بالمستشفى مع حالة صعبة، مع أنه كرئيس للقسم ليس مجبراً على فعل ذلك.

العمل عنده شيء مقدس، وهي تعاتبه على كون عمله أهم منها ومن ابنها.

قررت هي التخلي عن شغلها بوكالة الأسفار لتتفرغ له ولبيتها، الشيء الذي جعل غيابه عن البيت يلاحظ مضاعفاً.

كان يكره هذه المقارنات، فالعمل ليس امرأة لتغار منها. لكنه كلما حاول إقناعها تتفتح الغيرة لديها براعم.

عرض عليه بعض زملائه أن يشاركهم في فتح مصحة في أغادير.

فرحت وفاء بالعرض مقتنعة بأن العمل بالقطاع الخاص سوف يحرر زوجها من الجامعة ومسؤوليات المستشفى.

لكن الطبع يغلب التطبع.. وتغيير المكان لا يؤدي بالضرورة إلى تغيير الطباع.

هو من النوع الذي يعبر عن الحب بغير الكلام ويعتبر ارتباطه بها حباً، ووفاءه لها حباً، وكثيراً ما حاول أن يثبت لها ذلك.. لكن الحب عندها يحتاج إلى تعبير وإلى براهين وإلا فسرعان ما يعبث الشك بخيالها.

في الأخير، رحلت إلى بيت والدها مع ابنهما مقتنعة بأنه لا يحبها.

قالت إسلان بصوت ناعس:

«غريب كيف تفضي البدايات الرائعة إلى حياة عادية التعقيدات».

يحس المرء وهو وسط المحيط بنسبية الأشياء.

وجودي فوق عالم مائي قائم بذاته جعلني أشعر بمسافة بيني وبين عالمي الخاص.

قد يكون هذا ما يبحث عنه الملاحون: المسافة.

هكذا فكرت مع نفسي وأنا ألاحظ وجود مسافة أخرى بين عالمي وعالم الدكتور رشيد الذي يبدو كسمكة في البحر. قلت له في ما يشبه الثناء:

- إنك ملاح ماهر.. من أين جاءك حب الملاحة؟

رد رشيد بنبرة تأمل:

- إنها خلاصة قصتي مع البحر.. غضبي منه ومصالحتي معه.

- كيف ذلك؟ تبدو عاشقاً للبحر.

- لقد سبق أن غرقت فيه لكنه كان شهماً معي.

- حقاً؟ ومتى حصل ذلك؟

صمت رشيد قليلاً ثم بدأ يحكي وهو ينظر إلى الأفق وكأنه يرى أحداثاً تتكرر أمامه:

- كان عمري اثني عشر عاماً، حين سافرت مع والدتي وخالي وزوجته وابنتيهما التوأم وابنهما خالد الذي كان في مثل سني - كما يفعل جل المراكشيين هروباً من حر الصيف- إلى شاطئ الجديدة.

خرجنا خلسة في الصباح الباكر أنا وخالد والكل نيام.

توجهنا نحو البحر وخالد الذي يحسن السباحة يعد بأن يعلمني..

ركبت الأمواج بحذر، أحاول أن أتعلم العوم، بينما تعمق خالد بثقة من يحسن السباحة. وما هي إلا لحظة، حتى تغير وجه الموج ليبدأ في تقاذفي واللعب بي. حاولت الخروج من الماء، وأنا أصرخ خالد.. خالد.. لكنني لم أفلح، فما كان إلا أن استلقيت على ظهري مستسلماً للقدر لأجد نفسي، بعد مدة من الزمن، على الرمال وقد قذف بي الموج بأعجوبة، وأنا بين الحياة والموت.

بعد أن أسعفني رجال الوقاية المدنية علمت بأن خالد قد لقي حتفه بين الأمواج.

لن أنسى ما حييت مأتم خالد وأنا أبكي، وأمه مغمى عليها من شدة الحزن، وكلما مر خالي بجواري إلا وصفعني. ظللت لسنوات أحس على خدي وقع تلك الصفعات التي جعلتني أعزف عن البحر.

صمت رشيد من جديد وقد عبرت نظراته لمسة من الأسى.

قلت:

- تجربة قاسية فعلاً.. أحيي فيك هذه الإرادة وهذا التحدي.. و.. متى قررت المصالحة مع البحر؟

- لزوجتي وفاء الفضل الكبير في ذلك. هي التي أقنعتني، بعد مجيئنا إلى أغادير، بتعلم السباحة والملاحة كذلك، كما أقنعتني بشراء هذا المركب. قالت بأن في هذا مصالحة مع الموج وأخذاً بثأر ابن خال هلك فيه... «تعلّمْ كل ما في مقدوره أن يوسع مساحة الحرية لديك»، هذا أول درس تعلمته منها.

- زوجتك فيلسوفة.. أنت محظوظ.

- أجل تقول لي دوماً: «الإنسان جلاد نفسه.. يصعب عليه فراق الأشياء الموجعة..». معها حق وإلا ما الذي غير حياتنا؟ ما الذي جعل علاقتنا تتعقد بهذا الشكل؟ إنني أحبها وأحب ابني ولا طموح لي غير إسعادهما، فلماذا أخفقت في ذلك؟ إن لم يكن الإنسان جلاد نفسه، كما قالت؟

- أين وصلت قصتكما؟

- جاءت لتعزيتي وعادت لبيت والدها من جديد.. قالت إنها ليست مستعدة إلى حد الآن.

ثم أضاف:

- كم مرة سأعيد شريط حياتي معها محاولاً فهم نقطة الخلل فيه؟ ليتها تعلم الآن بأن هاجسي ليس ذاك المعتم في ذكرياتي إنما المضيء فيها.. فأكثر ما يعذبني لحظات السعادة عندما تطفو في الذاكرة فأحس إلى أي حد أفتقدها وأفتقد ابني.

أما الذكريات المؤلمة فقد تعلمت مع الوقت كيف أزيحها كلما ظهرت على شاشة الذاكرة، كما نزيح بالريموت كنترول مشهداً على شاشة التليفزيون لا يروقنا.

كما لينهي حديثاً حزيناً، ولطيّ الصفحة نهائياً، سألني بخفة:

- هل سبق لك أن اصطدت السمك؟
- أجل، لقد كانت «الصنارة» هوايتي المفضلة في أزمور.
- دعني أعطيك أول درس في اصطياده بالشبكة إذاً.
- رائع، سأكون ممتناً لك.

بدأت حركة دائبة على المركب، لها نكهة مرح طفولي، يصعد من قلب رجولة يلزمها تواطؤ فحل لمواجهة أمواج متقلبة كالحياة.

الحياة تتجدد كل يوم وعليّ أن أكون رجل اليوم.

بهذا الشعور استيقظتُ باكراً، أعني قبل إسلان. من أين لي بهذه الحكمة؟ يبدو أن نزهات الأحد البحرية مع رشيد لها وقع إيجابي على مزاجي. قررت أن أمشي على الشاطئ قليلاً في انتظار أن تستيقظ إسلان وتقوم بحصة اليوغا الصباحية.

قبل أن أنصرف تركت لها ورقة فوق المنضدة:

«مؤلمة الجمال وأنت نائمة.. فلا تغدقي عليَّ بكرم أكبر من أن تحتويه يداي..

بعض خطوات على الشاطئ وأعود إليك.. أحبك بحجم المحيط».

أجر خطى ثقيلة على الشاطئ فيما يركض حولي العديد من ممارسي رياضة العدو.

أمر بمحاذاة حبيبين يمسكان بيدي بعضهما بعضاً ويضحكان. الشابة تبرز بطناً يبدو في شهره السادس من الحمل.

يعيدني المشهد إلى حمل ربيعة وإلى نقاشي مع الدكتور رشيد حول معنى الأبوة.

ما هي الأبوة؟

هل هي أن تحب كأب وتحس بمسؤولية هذا الحب؟

أم أنها مجرد مغامرة لحيوان منوي كان أسرع من غيره ذات جماع؟

الأبوة في بعض الدول الغربية ودول أمريكا تقتصر أحياناً على إعطاء حيوانات منوية لبنوك تدخرها لصالح نساء اخترن الأمومة ورفضن الزواج.

نساء تقتني حيوانات منوية حسب مواصفات «الأب المانح» المسجلة في ملف صحي: لون العينين، لون الشعر، الطول والوزن، من دون أن تعلم شيئاً عن هوية هذا الذي سيصبح أباً لذريتها.

أما الرجال «المانحون» فهم يقبلون أن يصبحوا آباء دون معرفة لمن، ودون إمكانية التعرف إلى هؤلاء الذين منحوهم الحياة إن هم صادفوهم يوماً. فهم يعطون إفرازات وليس عواطف وعليهم أن يتجاوزوا ما يصبح بالنسبة إليهم شيئاً شكلياً ليس إلا.

كنت أباً على ورق لابن لم يكن والده البيولوجي أكثر من حيوان منوي سريع سقط خطأ في رحم أمه.

أذكر يوم غادرت أزمور بعد أسبوع من ولادته، كم كنت ممزقاً بين شعورين متناقضين: وجه الطاهر الملائكي الذي يرجني حناناً، وحالة اكتئاب ربيعة التي تهدد بالتسرب إلي.

أتخيل أحياناً إن لم يكن الطاهر يحمل إعاقة عقلية وعرف بأنني لست والده البيولوجي. كيف سيكون إحساسه ورد فعله؟

كيف له أن يواجه نفاق مجتمع يعاقب الضحايا بدل المجرمين؟

ماذا كنت سأقول له لمساعدته على تخطي وضعيته؟

كنت سأقول له إنه لا أحد يختار والديه.. وبأن هناك أشياء لا يد لنا فيها، يستحسن عدم الرجوع إليها ولا التفكير فيها.. لأن لا سلطة للماء على جريانه.

كنت سأقول له: أنت لن تكبر ما لم تسامح والديك.

أذكر بتأثر بالغ قسوة ما قاله الدكتور رشيد عن والده، ونحن نفرغ الكؤوس بشرفة المطعم، وأنا أحاول إقناعه بأن يذهب إلى توديعه قبل أن يموت.

كانت قسوته بحجم ألمه الذي ما استطاع مرور السنين ولا النجاح ولا حبه لزوجته ولا حتى إنجابه لوليد أن يخففوا من حدته.

قال:

«كانت صورة زفافه في صدر صالة الجلوس هي الشاهد الوحيد على أن لي أباً. لم أفهم كيف تشبثت بها والدتي، ولم تكن إلاّ برهاناً إضافياً على تخليه عنا».

وقال:

«لا أذكر من ملامحه غير نظارتيه السميكتين، لتصحيح قصر البصر.. كنت أتمنى لو يجد الطب ما يصحح قصر العواطف».

وقال:

«تمنيت أن يكون ميتاً، لأنه من السهل أن تكون يتيماً على أن تكون في عداد المتخلى عنهم. اليتيم ضحية القدر والمتخلى عنه مذنب حتى تثبت براءته.

المتخلى عنه تخلى عنه الحب.. لأنه لا يستحق الحب.

الحب نعمة تذهب إلى من يستحقها».

وقال:

«المشكلة هي أنه بيننا كلام كثير وليس من الممكن أن نقوله».

وقال:

«أعلم أن لا أحد يختار والديه، لكن لماذا يكون من حظي أسوأ وأرذل أب، «إنه لا يملك بذرة الأبوة» قالت والدتي، لكن ما ينقصه حقاً، هو مجرد قلب يجعل منه إنساناً».

أنا الذي مات أبي قبل أن تلتقط ذاكرتي صورة له، كثيراً ما تمنيت لو عاش فقط، ولا يهم بعد ذلك كيف سيكون.

فكرت بأنني كنت سأسعد بأبوتي لو كنت صادفت إسلان من قبل.

لم يسبق لنا أن تحدثنا عن الأطفال لفرط ما انشغلنا بحبنا،

لكن فارق السن بيننا يجعلني أتساءل إن كانت ترغب في تبني طفل يؤنسها عندما أغادر هذه الحياة. لابد أن أفاتحها في الموضوع.

خرجت من أفكاري وعدت أدراجي إلى البيت، فلنا موعد بالمصحة مع الدكتور رشيد لمعرفة نتائج الفحوصات التي قام بها بعد أن لم ينفع الدواء في شفاء قرحة لسان إسلان.

استقبلنا بوجه قلق، وكان برفقته زميل له يدعى الدكتور العمراني، له شعيرات خفيفة صففت بعناية لإخفاء صلعة متمردة كصفعة الزمن. قال بأنهما سيشرفان معاً على علاج إسلان.

فالأمر أعقد مما كان يتصور.

كان الدكتور العمراني مختصاً في مرض السرطان.

ما كنت لأصدق، ساعتها، ونحن تحت أضواء السعادة، بأنها بداية المآسي..

فتبدأ المصابيح، كما على خشبة مسرح، تنطفئ الواحدة تلو الأخرى لتوقع العتمة نهاية العرض.

الفصل الرابع

تفتح إسلان عينيها كما لو كانت ترفع حملاً ثقيلاً، بحركة بطيئة وجهد كبير.

ترفع يدها بجهد أكبر، لتضع سبابتها على ثقب الحنجرة الذي تتنفس منه، تقفله لحظة لتقول بصوت متقطع وغير مسموع:

«اذهبْ. . إلى. . المطعم».

عليها أن تختار بين أن تأخذ نفساً أو أن تنطق بكلمة.

اكتفيت بإيماءة وجلست أمام ضعفها الذي يرجني من الأعماق.

دخل الدكتور رشيد ليجدنا متقابلين يجثم الزمن بيننا كعجوز ما عاد يقوى على الحراك. قال بنبرة آمرة:

- جئت لآخذك إلى المطعم فلن أتغذى من دونك.

أشارت إسلان علي بإلحاح بالذهاب معه وقد أحسّت بنوبة

ألم حادة تجتاح كيانها. مدت يدها نحو علبة التوابل بجانب السرير، أمسكت بقارورة صغيرة، استنشقتها بعمق، كغريق يرفع رأسه من تحت الماء ليستنشق هواء الحياة، ثم أغمضت عينيها وقد بدت كأنها تنفصل عن جسدها شيئاً فشيئاً لتحلق أبعد ما يمكن عن موطن الألم.

قال الدكتور رشيد ونحن في طريقنا إلى المطعم:

- صعب ما تعيشه يا عزيزي.. لا أفهم عنادك هذا، دعني آخذها إلى المصحة، الدكتور العمراني مختص في طب الألم كذلك، إنه اختصاص تقدم بشكل كبير خلال السنين الأخيرة، ونحن نعتمده كثيراً في حالات كحالتها ليحتفظ المريض بشيء من جودة الحياة.

ابتسمت في نفسي وأنا أسمع كلمة: «جودة الحياة» أوشكت أن أسأله عن أي جودة يتكلم؟ لكنني تماسكت. سأل هو:

- ما تلك القوارير بتلك العلبة في جوار سريرها؟ ما الذي كانت تشتمّه؟

رددت ما قالته لي في أول لقاء لنا في بيتها في لندن وأنا أسألها عن العلبة:

- إنها قوارير تحتوي على توابل من مختلف أنحاء العالم.. كل قارورة تحكي حكاية.. إنها عصارات حكايات الكون مجتمعة في علبة للتوابل.

قال مستنتجاً:

- من هنا جاء اسم المطعم «علبة التوابل»؟

- أجل.. لها علاقة رمزية عميقة بهذه العلبة.

- ولماذا تشتمّ قوارير التوابل؟

- إنها طريقتها في السفر عبر الرائحة، تسلمها جسدها فتقودها إلى مكان من الذاكرة.. يبدو أن كل قارورة ترتبط بفترة زمنية من فترات حياتها بكل ما تتضمّنه هذه الفترة من أشخاص وأماكن وذكريات. فكما يحتفظ بعضنا بألبوم الصور، تحتفظ هي بألبوم الروائح. روائح التوابل.. كل قارورة هي انعكاس للحظة أو لحظات من حياتها وعبيرها بساط سفر سحري نحو هذه اللحظات، تبعدها نوعاً ما عن الألم.

سأل في استغراب:

- وهل تعتقد أنها فعلاً تخفف عنها الألم؟

- يبدو ذلك، قد يكون نوعاً من أنواع التأمل أو التركيز على طريقة اليوغا.. لقد تأثرت كثيراً بالثقافة الآسيوية وبفلسفتها في الحياة.

استرسلت أمام صمت يعرب عن عدم اتفاق:

- أتفهّم أن يصعب على طبيب باحث مثلك، قد يرفض أنواع الطب التقليدي الآسيوي والطب الموازي، أن يستوعب ما ليس ملموساً وخاضعاً للتجربة العلمية..

و.. وأن يقرّ على أن الجرح ليس دائماً حيث نعتقد.

اكتفى الدكتور رشيد بإيماءة من لا يجد الحماس للدخول

في نقاش حول أمور تتعلق بالطب مع من ليست له الكفاءة لذلك، وقد وصلنا مدخل المطعم.

استقبلنا الشاف نجيب، وهو المدير الجديد الذي أسندت له إسلان مهمة إدارة المطعم، مرحّباً:

- السي فؤاد طاولتك جاهزة على الشرفة.. كيف حال الشاف إسلان؟

- إنها في يد الله.

- الله يهون عليها.

تمتمتُ «شكراً» وجلستُ قبالة الدكتور رشيد على طاولتنا أمام البحر، فيما استقرت بمعدتي غصّة أغلقت شهيتي.

وحتى أغير الموضوع سألت الدكتور رشيد:

- هل من خبر عن زوجتك؟

- نعم هناك جديد لكنني لم أجرأ على إخبارك به وأنت في محنة.

- بالعكس يا صديقي، أنا في حاجة إلى سماع شيء مفرح.

- لقد دعتني الليلة إلى العشاء في بيت والدها.

- رائع! كيف حصل ذلك؟

- يبدو أن المسافة التي فرضتها وفاء كانت إيجابية، بل ضرورية لإعادة ترتيب الأفكار والعواطف. لقد أرغمتني على تأمل الحياة خارج عالم الطب. سامحني إن قلت لك بأن ما تمران به من محنة، أنت وإسلان، إضافة إلى وفاة والدي، قد

جعلاني أعيد النظر في حياتي وأدرك أولوياتها. كثيراً ما قالت لي وفاء بأن الحياة ليست بهذه الجدية التي أستشعرها، ومعها حق. تحدثنا طويلاً عبر الهاتف وأحست فعلاً بأنني قد تغيرت.

- سيكون وليد سعيداً جداً بجمع شملكما.

- أجل، حبيبي وليد، لقد ظلمته كثيراً.. لأسباب أدركتها الآن، كنت غير قادر على التواصل معه. كنت أحس بضيق حينما ألاعبه وينفذ صبري بسرعة عندما يكثر فيه الشغب، وأهربُ من الأسرة لأكون أباً لكل الطلاب ولكل المرضى إلا للذي أنجبته من صلبي.. سوف أعمل قصارى جهدي لأعوضه عما فات.

- وماذا تنوي فعله هذا المساء؟

- سوف أشترى باقة من الزهور الحمراء لوفاء ولعبة لوليد، وأقصد بيت صهري لأستعيد حقي في أبوة انتفضت في داخلي.

- سعيد جداً لسماع هذا، أخيراً سوف تعرفني إلى زوجتك.

- سوف تعجب بها لا محالة.. أتعلم؟ هناك شيء يجمعكما: حب الأدب.

إنها تحب قراءة الروايات ذات النهايات الحزينة التي تبكيها لساعات.. لم أكن أفهم كيف يمكنها أن تنفعل مع رواية إلى هذا الحد، أنا الذي لم أقرأ كتاباً خارج نطاق كتب الطب منذ فترة دراستي الثانوية... ستجد فيك صديقاً تتقاسم معه ولعها بالقراءة.

- أتمنى لكما كل السعادة.

غادرنا المطعم. هو إلى المصحة ليعالج مرضاه وأنا إلى حبيبة لا علاج ينفع معها.

إحساس مرير بالضياع يتسرب إلى دواخلي.. كيف يمكنني مجرد تخيل الحياة من دونها؟

أنا الذي ينتقل من الشك إلى اليقين عندما تظهر، ومن اليقين إلى الشك عندما تختفي.

رائحة البحر المالحة تعبق في الفضاء..

أجر الخطى نحو البيت ببطء شديد وأستعيد تفاصيل نقاشي مع إسلان يوم فاتحتني في موضوع «الموت الرحيم»:

كانت الليلة ما قبل موعد العملية الجراحية التي سيُستأصل فيها لسانها.

ونحن بغرفة المصحة، قالت بحسم ودقة من سينطق بآخر كلماته، أو سيملي آخر وصية.

- أريدك أن تعدني بشيء.

- كل ما تريدينه حبيبتي.. فداك عمري.

- لا، لا تستعجل أنا أعلم مدى صعوبة ما أنا بصدد طلبه منك.

- ماذا؟ شغلتني.

- أنا الآن بصدد الدخول في نفق أسود ولا أحد يعلم كم سيلزمني المكوث فيه.. لا يخيفني الموت بل أعتبره رحمة..

قاطعتها بسرعة:

- أرجوك غيري الموضوع، لا داعي لحديث كهذا.

أمسكت بيدي وسكبت سواد عينيها بعيني قائلة:

- أرجوك، لا تقاطعني فالأمر ليس هيناً. وسيأتي وقت لن أستطيع التعبير عمّا أنا بصدد قوله الآن.. قلت بأنني لا أهاب الموت.. ما أهابه هو التدهور الإنساني، هو الألم الذي لا يطاق، هو اعتمادي على الآخرين في كل شيء. أعلم أنك ستعتني بي بكل حب، لكنني لا أرضى لنفسي أن تفقد استقلاليتها وأن تعتمد على أحد حتى ولو كان زوجي. أريد أن تعدني، يوم أصل الحد الذي أبدأ فيه بفقدان إنسانيتي أن تساعدني على الرحيل بكرامة.

حاولتُ أن أسحب يدي من يديها، لكنها واصلت وهي تضغط أكثر على يدي مجبرة إياي على الإصغاء:

- أحببتُ الحياة، وعشتها كما أردت وأكثر، وسوف أستقبل الموت بسكينة وسعة خاطر، شريطة أن أموت إنسانة بكامل كرامتي..

للموت وجوه كثيرة.. فقدان الحياة لمعناها موت، وأنا سأفقد غدا ما كان يشكل جوهر الحياة عندي، لكنني لن أستسلم بسهولة، سأنتظر على أمل أن يكون الموت رحيماً بي قبل أن أصبح بقايا إنسانة مشوهة.

كنت أتمنى أن أموت في حادثة، لا يهم كيف، المهم أن تكون ضربة قاضية وحسب، أو أثناء كارثة طبيعية كصديقي

هيروكي، قبل أن يعرف جسدي تجربة السرطان هاته، لكننا لا نختار موتنا كما لا نختار مجيئنا إلى الدنيا.

ليس لي أحد غيرك أطلب منه أمراً مثل هذا. . أعتبره أنا شخصياً برهانَ حب.

أريدك أن تعدني. . لأن معرفة أن لي حق الاختيار سوف تعينني على التحمل أطول مدة ممكنة.

لا أريدك أن تعتبر طلبي انتحاراً، ولا مجال للمقارنة. أريدك أن تعتبره إرادةً أخيرة لإنسان يطالب بحقه في الرحيل يوم يفقده المرض والألم إنسانيته. لستُ ملاكاً ولا نبياً. . لست جاحدة ولا ملحدة ولا شيطانة حتى. .

أنا بشر ليس إلا، أعرف جداً حدود قدراتي، ونقط ضعفي وهشاشة قوتي، والمحتمل عندي وغير المطاق. ما أريده منك هو وعد يساعدني على ولوج النفق.

صمتت هي وكنت أنا في حالة انفعال بحيث لم أنتبه إلى دموع تهطل لوحدها من عيني.

ظللنا صامتين طويلاً، ثم نهضتُ وخرجتُ إلى شرفة غرفة المصحة أبحث عن هواء وفضاء أهرب إليه.

أنا أول من يأسف لما يحدث، وأول من يغضب ومن يرفض هذا الظلم الذي حل بها. لكنني في الوقت نفسه، وإن كنت أفهم ما تعنيه، لا أجد بداخلي القوة أو الضعف على إعطاء وعد مثل هذا.

كيف أعطي وعداً أنا الذي أومن بأن الله من يمنح الحياة ومن ينزعها؟

أنا لست إلهاً حتى أقرر ساعة الرحيل ولا أن أساعد أحداً على ذلك.

كنت مستعداً لأن أحقق أي رغبة لها إلا هاته.

عدت من الشرفة إلى مكاني قبالتها لأقول في هدوء:

- يجب ألاّ تفكري في الموت الآن، عليك أن تفكري في الحياة.

أردفت في هدوء كذلك:

- نحن اعتدنا أن نتحدث عن الموت كما لو كان شيئاً مخجلاً. نتعامل معه على أساس أنه عقاب وليس شيئاً حتمياً: فهذا مات لأنه أفرط في التدخين وذاك لأنه لم يعتن بصحته، والآخر خاطر بنفسه.. وهكذا.. أظن أن الإنسان لا يفكر في الموت بما يكفي، لأنه لو فكر في الموت لأحب الحياة أكثر.

- لا يمكننا أن نتوقع الموت.

- غير خاف عليك أن في أوروبا، كما توجد وكالات للأسفار توجد وكالات متخصصة في السفر الأخير، حيث يمكن لمن رغب في ذلك، اختيار طقوس جنازته ونوعية الصندوق الذي يريد أن يدفن فيه، ويؤدي ثمن ذلك مسبقاً وهو مرتاح لأن هناك من يقوم بإعداد كل شيء كما خطط له..

أن تتوقع أو أن تجهز نفسك لشيء محتوم لا يعني استعجالك له.

قلت:

- هذه أمور خارجة عن إرادتنا.. القدر هو الذي يوزع الأوراق يا حبيبتي.

أجابت:

- أجل، لكننا نحن من نلعب.

أمسكت بيديها، وقلت حاسماً:

- أريدك أن تقاومي وأن تنتصري على المرض وأعدك بأن أساعدك في هذا..

إن ننو خيراً نجدْ خيراً.

أدركت جسامة ما تطلبه مني، وقالت:

- أعتقد أن لا أحد بإمكانه فهم ما أقصد. لا بأس فلنطو الموضوع.

بعد مدة من إجراء العملية الجراحية، قضتها حبيبتي في انتكاسات تلو نقاهات والأطباء يجربون كل حديث في مجال العلاج الكيميائي والإشعاعي، بدأت حالتها تتدهور واستقر الألم في أعضائها. نقلتها إلى المستشفى الأمريكي في باريس، حيث قام الأطباء بكل الكشوفات ووصلوا إلى التشخيص نفسه والتكهنات نفسها، معترفين بعجزهم أمام حالتها.

ها أنا أعيش انحدارها التدريجي نحو قعر الجحيم.. مكتوف الأيدي.: تعذبني نظرتها المتوسلة إلي في صمت بفعل شيء.. وقد أصبحتْ أكثر ألماً من أن تئن.

كيف يخاف الناس الموت؟ آه، لو يعلمون كم هو صعب المنال حينما نتمناه!

هي المولعة بالحياة، لم أكن أتصور أنه سيأتي عليها يوم يصبح أقصى ما تتمناه مفارقتها.

دخلت الممرضة التي تعتني بإسلان تحمل صينية بها إناء يحتوي على سائل هو كل غذائها. بواسطة حقنة كبيرة مررت السائل ببطء عبر أنبوب يدخل من الأنف ليصب مباشرة في المعدة، وانصرفت.

منذ إصابتها بسرطان اللسان لم يعد الطعام ذاك العالم السحري الذي وهبته حياتها، ذاك العالم الذي يخلب الحواس. فالأطباق التي تفننت في ابتكارها أصبحت مختصرة في سائل من مواد غذائية مطحونة، يؤدي وظيفة فيزيولوجية فحسب.

وحدها قوارير التوابل عبر حاسة الشم تربطها بنكهة الحياة.

ما إن انصرفت الممرضة حتى أخرجت قارورة من علبة التوابل، وأخذت نفساً عميقاً كما لتمحو رائحة السائل الملعون. .

عجبت للإنسان كيف يبدأ حياته بالسوائل لينتهي إليها.

عادت الممرضة لتخبرني بأن هناك شخصاً في الصالة يطلب رؤيتي.

كان مدير مدرسة الفندقة في أغادير من جاء لزيارتها. استقبلتُه، وقمت بواجب الضيافة وأنا أعتذر قائلاً بأن الطبيب قد منع الزيارات.

الحقيقة أنها هي من قررت منع الزيارات.

ليس كرهاً في الناس ولا حباً في عزلتها القاهرة، ولا كان بالقرار الهين.

لكن، كيف لها أن تتحمل نظرة شفقة من أحد؟

تريد أن تدخل عالم النسيان بهدوء ودون شاهدِ عيان.. تريد أن يتذكروا أطباقها فقط ويستمتعوا بما تبقى من لذاذاتها في الذاكرة.

لا تريد أن يتذكر أيّ كان منظر الأنبوب الذي يخترق جوفها، ولا الثقب الذي يرصع العنق، ولا تشنج جسدها عند كل نوبة ألم.. لذا لم تسمح لأحد، غير الدكتور رشيد والممرضة، باقتحام عزلتها الموجعة.

أفهمها، وأعلم كم هي صعبة زيارة من هو في مثل حالتها.

ماذا يمكن لزائر أن يقول لها؟

أن يدعو لها بالشفاء مثلاً، وهي تعلم بأن هذا من سابع المستحيلات؟

أن يوهمها بأنّ هناك شيئاً يسمى المعجزة ولم يعد أحد يصدق المعجزات؟

أن يدعو لها بالصبر وكأنها فقدت عزيزاً هي التي فقدت نفسها؟

سيجلس أمامها، يشرب شيئاً ويقول لا شيء، لأنه ليس ثمة شيء يقال..

فاستعادة الذكريات المشتركة أمر مؤلم، وتحاشي الحديث عنها أكثر إيلاماً.

لهذا قررت منع الزيارات حتى توفر على الناس الحرج، وعلى نفسها مجهوداً يدعى «المجاملة»، لم يعد في طاقتها.

العلاقات الاجتماعية تتطلب نفَساً طويلاً مع إمكانية تجديده باستمرار.. وقد أصبح نفَسها أقصر من المسافة التي تربط الفم بالرئة.

ثم، كان سيأتي وقت، حتماً، وتنقطع الزيارات من ذات نفسها، لأن الروتين من هذا النوع لا يطاق.

لأن الأشياء هكذا، تضمحل مع مرور الوقت.. لأن الزمن يضعف كل شيء.

كانت، ساعتها، ستتألم كثيراً من وقع انفضاض الزوار من حولها.

لكل هذا قررت منع الزيارات.

أو ربما، فقط، لأنه آخر قرار كان بإمكانها فرضه على العالم.

يجتاحني تعب شديد. تمددت على الأريكة في صالة الجلوس وأشعلت جهاز التلفاز. انتبهت إلى أنني لم أشاهد التلفزيون منذ فترة طويلة.

يتحدث مقدم الأخبار في قناة الجزيرة عن شاب يبلغ من العمر ستة وعشرين عاماً أضرم النار في نفسه في مدينة سيدي بوزيد التونسية.

الشاب يدعى محمد البوعزيزي وهو بائع متجول للخضر، عانى من ظلم المجتمع له ومن فقدان كرامته. قتل نفسه لأنه رفض العيش بدون كرامة. وأصبح رمزاً للثورة التونسية التي اشتعلت إثر هذا الحدث.

«يناضل الناس من أجل الكرامة ويموتون من أجل الكرامة» يقول أحد المواطنين التونسيين.

ويقول آخر بتأثر وهو يمرر يده على رأس اشتعل شيباً: «هَرِمْنا، هَرِمْنا، من أجل هذه اللحظة التاريخية».

العالم يغلي من حولي، إنه الربيع العربي تتفتح براعمه في تونس، وأنا خارج الأحداث.

ها هو شاب يقتل نفسه من أجل عزة نفسه، هل يمكن اعتبار هذا انتحاراً أو ضعفاً؟ لا. «إنه رفض، إنه احتجاج، إنه ثورة ضد فقدان الكرامة». . يردد المذيع.

أعادتني كلمة كرامة إلى نقاشي مع إسلان حول الموت بكرامة.

يلح علي مشهد ضعفها، وقد غيرت نوبة الألم فجأة ملامح وجهها، وهي تحاول أن تداري أمامي، وصراخ أبكم يوشك أن يصم الفضاء. .

نهضت فجأة، جلبت الكمبيوتر، فتحته وبدأت أبحث في غوغل عن كلمة «الموت الرحيم»:

«اليوثنيزيا كلمة يونانية تعني في الأصل الموت اليسير أو الموت الكريم، أو الموت الرحيم وهو استجابة الطبيب المعالج لرغبة مريضه، بإنهاء حياته نتيجة لمعاناة هذا المريض من آلام مبرّحة لا يمكن تحمّلها، والميؤوس من شفائها نهائياً وقطعياً».

مقالات كثيرة وآراء عديدة ومتعددة حول الموضوع، تتوالى أمام عيني. بدأت أقرأ وأنا أقفز من مقال إلى آخر:

«الموت الرحيم يمارَس بشكل خفي في كثير من المجتمعات بالرغم من حظره دينياً وقانونياً، والذين يقومون به يبررون فعلهم بدوافع إنسانية محضة لتخليص المريض من وضع ميؤوس من شفائه».

«مصدر فكرة الموت الرحيم مأخوذة من الطب البيطري. . فالحيوانات تُقتل رحمة بها».

. . . .

«إن كان الموت الرحيم قد فرض نفسه في عصرنا، وقننته دول مثل هولاندا وغيرها، وتوجد جمعيات في دول أخرى تساعد على الرحيل، فلأن عصرنا بقدر ما يمنح الدواء ويمدد من الأعمار، يمدد من الألم».

. . . .

«الشرائع حرّمت القتل بكل أشكاله، وهذه بدع غربية ينبغي علينا ألاّ نناقشها.

والإنسان الذي يتعذب عليه أن يصبر حتى يموت».

. . . .

«إذا كان القتل الرحيم مشروطاً بشروط دقيقة ومحصّناً بالحذر ومرفقاً بآراء لجان طبية فهو ممكن في حالات خاصة ولمصلحة الإنسان».

. . . .

«منذ أكثر من ألف سنة قال الإمام أبو حنيفة «تتغير الأحكام بتغير الأزمان»، بمعنى أن لكل حاجة وقتها ولكل وقت حاجته. . ».

. . . .

«في الدول التي قننت الموت الرحيم، لم يلاحظ ارتفاع عدد المرضى الذين يلجأون إليه، لأن المريض الذي يعرف أن

بإمكانه الرحيل متى شاء.. يقل لديه قلق الموت.. لأن ما يرعب الإنسان ليس الموت في حد ذاته إنما الطريقة التي سيتم بها..».

....

«الرأي العام العالمي لم يعر أي اهتمام لقضية موت مليون إنسان في رواندا الفقيرة السوداء كما يعيره لموضوع كهذا. فالمسألة نسبية وتختلف من فترة إلى فترة ومن مجتمع إلى مجتمع..».

....

«لا يحق التعميم في حالات كهاته، فتأثير المرض يختلف من شخص إلى آخر، وقدرة التحمل تختلف من شخص إلى آخر، والإحساس بالألم نفسه يختلف من شخص إلى آخر..».

«لا أحد منا يتقاسم الألم مع هؤلاء المرضى.. هذا قرار خاص بهم ويجب احترام حقهم في الرحيل..».

قرأت كثيراً، وبات جلياً لدي بأن مواضيع كهاته عندما تبدأ في فرض نفسها لا بد من أخذها بعين الاعتبار. وأن على الأطباء في بلدنا أن يناقشوا بشجاعة ومسؤولية موضوعاً لا يؤدي التغاضي عنه إلا إلى ممارسات فردية قد تكون غير مسؤولة.

وإذا طلبت إسلان، اليوم، المساعدة على الرحيل، فهناك حتماً من سيطلبها غداً. المعاناة إنسانية لا جنسية لها. والعلم في خدمة الإنسانية جمعاء.. فلا يوجد طب هولندي وآخر مغربي.

أقفلت الكمبيوتر، مدركاً بكل أسى الهوَّة الخارقة بين النظريات وتطبيقها على أرض الواقع.. وأن نظريات العالم جمعاء لن تستطيع نزع الألم عن حبيبتي.

أين أهرب من ألمها؟

أنا النائم به والمستفيق عليه والمشدود إلى صمته.. والعاجز عن تبنّيه.

مازال مذيع الجزيرة يصف بحماس ما يقع في تونس، معلناً بأن العالم في حراك نحو المستقبل، وقد حان الأوان لطي صفحة الماضي، حين اتخذت قراري بأن أعرض الموضوع على الدكتور رشيد غداً.

توجهت بخطى من عليه أن يحسم أمراً، إلى شرفة مطعم «علبة التوابل»، حيث وجدتُ الدكتور رشيد في انتظاري. طلبت جعة لكي لا أتعثر في بداية كلام يعد بزحزحة الوجدان.

لكن الدكتور رشيد من بادر بالسؤال:

- كيف حال إسلان اليوم؟

- من سيء إلى أسوء.

- المسكينة آلامها مبرحة.. ليتني أستطيع لكما شيئاً.. ليته كان بوسعي أن أنقدها.

قفزت على جواب وجدت فيه مدخلاً لما أريد قوله:

- بإمكانك الآن أن تنقدها لو أردت.

- كيف ذلك؟

- أعني أن تحررها من قيود الحياة المريرة.

لم يفهم الدكتور رشيد ما أعنيه. سأل مندهشاً:

- ما الذي تعنيه؟

أدركت بأنني كنت مندفعاً وبلا مقدمات. فاسترسلت مفسراً:

- أعلم أن ما سأقوله لك أمر بالغ الصعوبة، ولقد حاولت أن أثنِيَها عن الفكرة لكنني في الوقت نفسه، كلما رأيتها تتألم ازددت اقتناعاً بفكرتها، إنني أتكلم بلسانها الذي لم يعد يستطيع التعبير عن نفسه. . ثم، إني أحترم رغبة الآخر وإن كانت في الرحيل الأبدي.

ارتبك الدكتور رشيد قبل أن يعيد السؤال بصيغة مباشرة:

- أتعني الموت الرحيم؟

أومأت بالإيجاب. فنهض واقفاً في استنكار:

- توقف. لا تضف شيئاً. كيف تجرؤ على أن تطلب مني شيئاً كهذا؟ أتفهم بأنني طبيب، أصارع الموت يومياً وسعادتي تتحقق حين أتوفق في أن أنتزع من بين مخالبه أحد مرضاي. . فكيف أسحب الحياة من مريض؟

- اجلس أرجوك. . دعنا نتكلم بهدوء. . فالموضوع شائك.

- الموضوع ليس شائكاً فقط إنه في غاية الخطورة.

- أرجوك أن تجلس ودعني أتمم حديثي.

جلس الدكتور رشيد من جديد وقد صبغت وجهه حمرة غضب.

واصلت بمرونة أكثر في تناول الموضوع:

- لا يمكن اعتبارها إنسانة حية إنها بقايا جسد يقضمه الألم، إنها كمحكوم بالإعدام لا يطيق الانتظار.

- ولو، واجبي كطبيب يحتم علَي أن أكون في صف الحياة، أن أعالج.

- هذا إذا كان باستطاعتك أن تعالج شيئاً، فالطب عاجز أمام حالتها، وهي في المرحلة الأخيرة من المرض ولم تعد تنتظر شيئاً. . إنها تدبّ إلى القبر ببطء لا يطاق. . إنها تريد فقط أن تعجل بخلاصها، أن ترحل بكرامة. .

- الطب لا يشفي بالضرورة إنه يسعى إلى العلاج والمواساة ومرافقة المريض في اللحظات الأخيرة.

- أليست مرافقة المريض في اللحظات الأخيرة، كما قلت، هي مساعدته على تخطي العقبة النهائية بأقل ما يمكن من الألم والذعر؟

بدأ الانفعال يغلب على الدكتور رشيد الذي طلب من النادل جعة كمن وجد نفسه في ساحة للتباري وأراد استعمال سلاح الخصم نفسه. قبل أن يستدرك:

- أتعلم أن الأوتانازي أو الموت الرحيم غير مسموح به قانونياً في بلدنا؟

- أعلم ذلك. ثم، نحن لسنا بصدد الحديث عن القانون، علماً بأن الإنسان هو صانع القانون. . وأن القانون يُعنى بالحالات العامة لا الخاصة. . نحن بصدد الحديث عن حالة إنسانية تطلب الحق في أن تضع حداً لعذاباتها.

- ولكنها جريمة.

- بل هي إرادة إنسانة لم يتبق لها في الحياة غير الألم وليس أي ألم. . إنسانة تفقد إنسانيتها كل يوم أكثر، إنسانة تموت في اليوم آلاف المرات، فمع كل أزمة تحس بأنفاسها تختنق وبنبضها يتضاءل، ولم تعد لها حتى القدرة على الصراخ أو الأنين، أصبح عليها أن تتقطع ألماً في صمت. .

انتفض الدكتور رشيد حاسماً:

- لن أقتلها.

- هذا ليس قتلاً، القتل يفترض العنف. . هذه رحمة. . ثم إنها ميتة بالتقسيط، وترجوك أن تساعدها على الرحيل بهدوء.

- لماذا أنا؟

- لأنك طبيبها، ولأنك صديقنا، ولأن أشياء كهاته لا يمكن أن نطلبها من أي كان. . ألم يسبق لك أن حررت مريضاً في حالة موت سريري من الآلات التي كانت تشده إلى الحياة؟ ألم يسبق لك أن فعلت هذا تحت مسؤولية الأسرة؟ أنا زوجها وأطلب منك هذا.

- أرجوك لا تخلط بين أمور متنافرة، إنها ليست في حالة موت سريري.

- الإنسان واحد، والمعاناة واحدة، والموت واحد مهما اختلفت الظروف والأماكن والقوانين. عد إلى قلبك واسأله: لو كنت أنت مكانها هل كنت ستتمسك بالحياة؟ تعامل معها كإنسان طال احتضاره ويحتاج منك، أنت الطبيب، مساعدته على موت رحيم، يحفظ له كرامته وإنسانيته.

صمت الدكتور رشيد قليلاً، ثم قال كمن توصل إلى الحل المناسب:

- أفهم معاناتك، سوف آخذها إلى المصحة.. سنعطيها حقن المورفين لنخفف من آلامها.

- لن تقبل مغادرة غرفتها. ولم يعد المورفين ينفع معها شيئاً.

- حاول أن تفهمني، الألم يشل من قدرات الفهم والتفكير والتمييز لدينا. إنها غير قادرة على اتخاذ قرارات.

انخفض صوتي وقد بدأت أيأس من إقناع الدكتور رشيد:

- فرق بين ما تعرفه نظرياً عن الألم والإحساس به. وعندما أقول الألم لا أعني هذا الذي تخففه المورفين، إنه ألم الحياة نفسها. حياة بدون مكوناتها الأساسية، بدون ذوق، بدون حركة، بدون حرية.. بدون كرامة.

قال الدكتور رشيد الذي لم يستطع أن يقلع بذلة الطبيب ويعبر إلى الضفة الأخرى

ليفكر في الموضوع من الجانب الإنساني:

- عليك أن تعلم بأن المريض بالسرطان يمر من مراحل عديدة، أولها الإنكار ثم الغضب ثم الرفض ثم الاكتئاب ثم القبول والتسليم، وأن من يطلب الموت الرحيم في المراحل الأولى قد يغير رأيه في ما بعد.

- هي ليست غاضبة ولا رافضة. إنها في مرحلة التسليم وقابلة بقدرها. ثم، معرفتنا بالطب لا تؤهلنا لسبر سر الاحتضار.

- ....

- كل ما كان بإمكان الطب أن يفعله قد فعله وهي مستسلمة في صبر.

ردد الدكتور رشيد بصوت منخفض:

- أعلم كم هو صعب العناية بمريض في البيت، دعني أنقلها عندي بالمصحة وسوف..

انفعلت فوق العادة وقلت:

- وسوف ماذا؟ تمدد من معاناتها ضد إرادتها؟ لا يبدو أنك قد استوعبت.. حقيقة يفاجئني منك هذا، ليتك تأخذ مهلة للتفكير مع نفسك. أعلم أن الأطباء لا يفكرون في الموت بمعناه الفلسفي. يحاولون بكل ما أوتوا من جهد أن ينتزعوا ما استطاعوا من مرضى من بين مخالبه. ولا يتوقفون لحظة ولا يتساءلون ما الذي يتمناه هؤلاء المرضى الذين ينقذونهم من الموت، ليرسلوهم إلى أهاليهم أو إلى أقسام أخرى، ربما في حالة غيبوبة قد تطول أو في حالة من التدهور والتبعية. مهمتهم إبعاد الموت فقط إلى حين، وليس التفكير في ماهية الحياة بعد ذلك.

لكن النقاش مفتوح في دول كثيرة حول الموت الرحيم، لأن الإنسان بوصفه كائناً حياً يطالب بحقه في الرحيل متى أصبح البقاء مستحيلاً. حتى متى سيظل الأطباء في بلدنا خارج النقاش؟

ألم يحدث لأحدكم أن قال لأسرة مريض: «لا أمل في

شفائه يمكنكم أن تأخذوه إلى بيته ليموت بين ذويه»؟ أو لبّى رغبة ابن في أن يغادر والده الإنعاش، لأن الطب عاجز عن فعل أي شيء؟

ألم يسبق للطاقم الطبي أن قرر توقيف آلة التنفس التي تربط مريضاً بالحياة؟ أو قرر ألاّ يحاول حتى، لأن الأمل ضئيل جداً؟ أليست كل هذه أنواعاً غير معلنة من الموت الرحيم؟

ثم ألم يسبق لكم أن سمحتم لمريض بمغادرة المصحة، لأن إمكانيات الأسرة المادية لا تسمح بتطبيبه؟ ماذا فعلتم ساعتها؟ لا شيء سوى أن طلبتم من الأسرة التوقيع على ورقة تعفيكم من كل مسؤولية؟ وأين تكمن مسؤوليتكم إذاً؟ وما هي حدودها؟

انتصب الدكتور رشيد واقفاً، وأسقطت يده بغير نية كأس الجعة. أمسكتُ بيده وأجلسته بلطف وقد أدركت أنني كنت مندفعاً وأنها ليست أنجع وسيلة للإقناع، فعدت لهدوئي لأقول بحزن عميق وأنا أستعيد قولها:

- لا تظنن أنه قرار سهل بالنسبة إليها، هي ليست محاولة انتحار من يعاني من اكتئاب حاد، إنها إرادة امرأة في كامل قواها العقلية والنفسية، امرأة عاشت الحياة كما أرادت، السرير بالنسبة إليها أعتم من القبر بغض النظر عن هذه الأمواس الخبيثة التي تنخر جسدها وتعصرها ألماً.

- .....

- ليس سهلاً علي كذلك أن أكون لسانها وأطلب منك هذا. .

أتعلم ما معنى أن تحب أحداً بقوة وكلما تراه تأمل في سرك أن تكون تلك المرة الأخيرة؟

حاول أن تفهمها أرجوك، تصور أن يكون لك موعد مع موت أكيد غير محدد.

رد بنبرة حاسمة:

- كلنا لنا موعد مع الموت غير محدد.

- لا، لا مجال للمقارنة، رحمة ألا يعلم المرء بموعد موته، لكنها هي في قاعة الانتظار. . تستعجل هذا الموت، تصبو إليه. . هو كل أملها.

- لو كانت في حالة موت سريري لربما كان لنقاشنا مبرر، لكنها في كامل وعيها وقواها العقلية.

- نعم هي في كامل وعيها وهنا يكمن عذابها. ليتها كانت في غيبوبة. إنها تحس بكل نوبة ألم. . تحسها جسداً وفكراً. . تستجدي كل نوبة أن تودي بها كما يستجدي غريق موجة أن تنقله إلى بر النجاة. .

من قال بأن النجاة مرادف للحياة!

- . . .

واصلت أمام صمته:

- حررها أرجوك، قبل أن يبتلع الألم ما تبقى من إنسانيتها.

ماذا عساها تقاوم! وحده الأمل يعطينا القوة في أن نقاوم ولا أمل لديها. . لم يعد ثمة ما يشدها إلى الحياة. طبعاً، سيبقى هذا سراً بيننا. . لن أتسبب لك في أدنى مشكل مهني.

قال الدكتور رشيد بهدوء وقد تسرب الحزن إلى صوته أيضاً:

- يمكنني أن أخفف من آلامها.
- ويمكنك أن توقفها بصفة نهائية.
- كيف يمكنني أن أعيش بهذا الثقل بقية حياتي؟
- كلما فكرت بأنك حققت الرغبة الأخيرة لصديقة، وبأنها سعيدة حيث هي، سوف تحس بنوع من الارتياح.

نهض الدكتور رشيد بعزم وهو يردد:

- لا، لا، هذا مستحيل.

ونزل يوقع الخطى على الرمال. .

بينما ظللت في مكاني في وضعية من فشل في مهمة مصيرية.

ولجت في هدوء الغرفة الغارقة في العتمة. وأنا أسألها:

- هل أفتح الستائر لتري البحر حبيبتي؟ إن الجو رائع هذا اليوم.

أومأت «بنعم».

أشرعت الستائر فتسربت خيوط شمس خجلى كأنما تستحي من اقتحام حميمية الألم.

ظللت واقفاً أعبر الغرفة طولاً وعرضاً، باحثاً عما أقول، وأنفاسها تتصاعد كما لتكسر الصمت الكثيف، وإذا بالممرضة تدخل بصينية الغذاء. توجهت بكل أدب نحوي سائلة:

- أستاذ فؤاد، أيمكن أن تطعمها بنفسك؟ لقد تلقيت مكالمة من البيت.. ابني حرارته مرتفعة.

ارتبكت وترددت لحظة قبل أن أرد:

- لا بأس، يمكنك المغادرة، سأفعل.

انصرفت الممرضة بعد أن شرحت لي كيف أعطيها الأدوية والمورفين مؤكدة عليَّ ألا أتعدى المقادير فبإمكان ذلك أن يودي بحياتها.

أمسكت بالحقنة، عبأتها بالسائل الغذائي، وبدأت أمرره ببطء عبر الأنبوب المدلّى من أنف حبيبتي، ممعناً في التركيز على مهمتي، محتمياً بالصمت المطلق، متحاشياً النظر إلى باقي وجهها.

استسلمت هي وقد بدا عليها بعض الانفعال.

ما إن انتهى السائل حتى اجتاحتها نوبة ألم حاد انعكست كزلزال على ملامح وجهها.

سألتها:

- هل أعطيك جرعة من المورفين لتهدئ من ألمك؟

أومأت بالنفي، ويدها تمتد في ارتعاش نحو قارورة للتوابل فتسقطها. هرعتُ فالتقطتها من على الأرض ومددتها إليها. أمسكتْ بها مشيرة علي بالانصراف.

سحبتُ ارتباكي إلى الخارج دون تردد.

هل احتراماً لكبرياء الوجع؟

أم تلبية لرغبتها في البقاء لوحدها؟

أم هروباً من عجزي التام أمام آلام مبرحة؟

هرعت إلى البحر أحتمي بشساعته. .

مشيت طويلاً على شاطئه قبل أن ألقي بثيابي رملاً وأرتمي بين أحضانه.

تصفعني موجة، أراوغ أخرى، وإذا بثالثة تصفعني من جديد.

أرفع رأسي فوق صفحة الماء. الأفق أمامي جاهز لعناق الشمس وأنا جاهز لعناق قدر يختفي وراء كذبة تدعى الإرادة. متى كانت الإرادة تكفي؟ ومتى كان القدر اختياراً؟

كم يلزمني من مياه لأغسل دماغي من جراثيم تسربت إليه، وإذا به يستأنس بها شيئاً فشيئاً، وعوض أن يحاربها يحاول في جهد فهمها؟

دراجة مائية تكاد تدوسني وهي تمرق بجواري بسرعة البرق مودعة وراءها خيطاً سميكاً من البنزين. «يكفي تلوث دماغي» قلت، وهممت بالعودة نحو الشاطئ تاركاً لإيقاع الموج مهمة حملي إلى بر النجاة.

طفل يبني قصراً من رمال تحت نظرات أمٍّ يكاد يُدمع الفخر عينيها. يعيدني إلى مشهد مشابه من طفولتي بشاطئ الحوزية، وأنا أبكي لأن الرمال تشرب كل الماء الذي أجلبه من البحر.

يجتاحني، فجأة، إحساس عارم بالشفقة عليها.. وألم يتسرب بداخلي هو ألمها المميت.

كيف أسلبها الحياة وهي حياتي؟

وكيف أتحمل موتها بالتقسيط أمام عيني؟

وكيف؟ وكيف؟

وكيف لا أساعدها على الرحيل وهو الحق الوحيد الذي تطالِب به؟

الطفل وأمه ورمال تتشكل قصراً، وأنا وشبح والدتي وحمرة في الأفق أسألها النصيحة. تمددت على الرمال، طفلاً صرت أبكي:
«ساعديني يا أماه!».
بكيت طويلاً إلى أن غفوت لأستفيق وقد دثر الليل صفحة الماء، وانصرف الطفل ووالدته، والمظلات الشمسية التي كانت متراصة على الشاطئ.

فجأة، أحسست بخفة تنتابني وكأن دماغي قد طردت جراثيمها..
كإشراقه تلوح حين يعجز التفكير، نطق صوت من أعماق أعماقي، قائلاً:

«تحرّر من إرثك، من يقينك.. ونقِّ السبيل من حصى الآخرين.
ولو تهتَ بعد حين، لا تسل العائدين من الجحيم..
سل الطيور المهاجرة».

نهضت متوجهاً إلى البيت، حيث إسلان لوحدها..
ملبياً نداء قلب اتخذ قراره.

ولجت الغرفة فاستقبلتني العتمة.

لماذا لم تشعل النور مع أن الزر في متناول يدها؟

أشعلتُ النور وإذا بي أجدها في وضعية من حاول النهوض ولم يستطع: فاللحاف على الأرض، وجسمها النحيل شبه عار في عرض السرير.. وقوارير التوابل مبعثرة فوق الفراش..

حملتها كطفلة بين ذراعي، وكان جسدها المرتجف أخف من ريشة.. نظرت إلي ودمعة متوسلة تكاد تدميني.

قلت لها:

- اهدئي حبيبتي.. سوف أقْدمُ على ما ترغبين به.. دعيني قبلاً أعانقك بكل قوتي.

ابتسمت لي تلك الابتسامة المضيئة التي غادرتها منذ شهور..

ثمة ابتسامات تذبح.

كان ذلك آخر عناق لنا قبل أن أساعدها على الرحيل في هدوء وسكينة.

من يحرر خطاي من صحوة الوجع، حين نائماً أمشي على شفرة تفصل بيني وبيني؟

من يعيد للغيم فضاءه، حين تسقط العتمة قبل موعدها، وتغفو في رمادها التفاصيل؟

من يعيد لخُفّك الأزرق خِفّته، حين تحت ثقل الذكرى ترزح الصور؟

من؟

وأين أهرب من أشيائك الصغرى التي أضحت يتيمة؟

قوارير التوابل التي اختصرت عمرك وعطرت أيامك الأخيرة..

ونظارتك الطبية التي تخليت عنها منذ قررت بأن الوضوح في مثل حالتك مؤلم لا أكثر..

هي ذي خلاصة حياتك الغنية.

قضيت الليلة جاثماً أمام جثمانها أناجيها..

وعند بزوغ أول نهار بدونها، اتصلت بالشرطة...

فاتحة مرشيد

الحق في الرحيل

«- أنتِ محظوظة، كم تمنيت أن يكون لي أب روحي أتعلم منه حكمة.. تكفّلت الحياة في غيابه بتعليمي.

- ماذا علمتكَ الحياة؟

- قالت لي: أن تعيش هو أن تتعلم المضي قدماً مثقلاً بما ينقصك.

- أجل حبيبي.. أول ما نتعلمه منها هو أننا حتماً نفقد من نحبهم وعلينا أن نستمر من دونهم.

انتابني رعب ساعتها، وأنا أفكر في نفسي، بأنني لست مستعداً لأن أفقدها.. ولا أعتقد بأنه من الممكن أن أستمر بعدها..

التقينا في زمن الحب المقتضب كالرسائل الإلكترونية..

وأحببتها على طريقة زمن الرسائل المعتّقة كنبيذ الشفاه.

قبلتها بحدة خوفي وأنا أستعيد بيتاً شعرياً لعمر الخيام:

اسعد باللحظة

فهذه اللحظة هي حياتك».

***

الحق في الرحيل، روايةٌ تحكي قصةَ حبٍّ عفوي، نبَتَ كزهرةِ ربيع رغم أن حياة العاشقَين كانت أميَلَ إلى الخريف من العمر. نما الأملُ في قلبيهما، وتكرّس في الزواج والاستقرار، لا بل في الاستمتاع بالعيش، بحسب الرغبة التي عادة ما يدفنها الإنسان لعدم سماح ظروف الحياة بتحقيقها. هذه الظروف نفسها هي التي ستفسد صورةَ هذا الحب، وهنا تطرحُ الرواية قضيةً إنسانية أخرى ليس من السَّهل التعامل معها. إنها تضع الإنسان أمام مرآةٍ لا ترحم، يقفُ أمامها وكأنه لا يستطيع مغادرة النظر إلى ذاته التي يحاول إقناعها بما لا تقدر عليه. إنه طلب الموت الذي يرجوه إنسان آخر منك، فمن تكون عندها القاتل أم المخلِّص؟ وكيف ستعيشِ صراع القيم والمشاعر بعد الرحيل الذي أنجزته أنت؟ وهل طلب الموت حقٌّ يطلبه إنسانٌ من إنسانٍ آخر؟ هل هناك موتٌ رحيم؟

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)
بيروت: ص.ب 113/5158
markaz@wanadoo.net.ma
cca_casa_bey@yahoo.com

ISBN 978-9953-68-633-2

9 789953 686332

لوحة الغلاف لبيكاسو